

## تفسير سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ  
بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ  
وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ  
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

ذَلِكَ الْكِتَابُ: القرآن العظيم .

لا ريبَ فيه: لا شك في أنه حق من عند الله .

هُدًى: هادٍ من الضلالة .

للمتقين: الذين تجنبوا المعاصي وأدوا الفرائض فوقوا أنفسهم العذاب .

لا ريب في أن القرآن كتاب هدي وإرشاد ، ولكن المنتفع بهديته هو الذي يكون  
جاداً حق الجدية ، بالنسبة لمعرفة الهداية ، والذي مازال يشغل هذا الأمر باله ، ويختلج  
في صدره ليل نهار ، إن بذرة «الطلب الصادق» التي تنبت في أرض الفطرة ، هي ذاتها  
تشكل نقطة البداية للظفر بالمطلوب وإدراكه ، إن «الطلب الصادق» و «الإدراك  
الحقيقي» ليسا ، سوى مرحلتين ، متقدمة ومتأخرة ، لمسيرة واحدة ، إن ذلك يبدو  
وكأنك المرء يتصفح صفحات مطوية من فطرته هو بالذات ؛ إذ طالما يريد الإنسان  
لذلك إرادة صادقة ، فلا يلبث أن تشاركه الطبيعة كلها ، وتسجم معه في سيره ،  
وتأخذ نصره الله بيده ، وبالتالي هو يبدأ يتلقى إجابة محددة واضحة لنداء فطرته  
الغامض . وإن انبعث «الطلب الصادق» في داخل أحد من الناس ، يعنى محاولة  
تتجه لمشاهدة العالم الباطني وراء هذا العالم الظاهري ، وعندما تنتهي هذه المحاولة إلى  
مرحلة الإدراك تتحول إلى «الإيمان بالغيب» ، فالحالة النفسية التي تتمثل بادئ بدء ،  
في اضطرار المرء إلى أن يُلقى أمام «حقيقة عليا» ، هي نفسها ستبرز في المرحلة التالية

في صورة تحوله إلى « مقيم الصلاة لله » والعاطفة التي تكون في البداية عبارة عن طموح الرجل إلى أن يقف وجوده لخدمة « الخير الأعلى » ، هي ذاتها ستكون وقد تحولت إلى الإنفاق والتضحية ، في سبيل الله ، بكل ما يملك ، وبكل ما يحرص عليه ، والحيرة التي قد تخيم على أحد ، وهو يحاول البحث عن العاقبة الأخيرة أو المصير النهائي ، لما يجري على مسرح الحياة الإنسانية من أعمال وأحداث ، إنها بدورها لا تلبث أن تنقشع وتزول تلقائياً ، عقب تحقق يقينه بالآخرة ، وما يكون فيها من الحساب والجزاء الوفاق .

إن إدراك الحق يعني بلوغ وعي الإنسان إلى مستوى موازٍ للحقيقة العليا ، والذين يوفّقون لإدراك الحق على هذا النحو ، يتحررون من أسر جميع أنواع العقد النفسية ، وبالتالي ينظرون إلى الحق كما هو بصورته المجردة ، ولذا فإنهم سرعان ما يعرفون الحق أينما وجد ، ويُلبون نداء الداعي إليه ، كائناً من كان من عباد الله ، ولا يحول أبداً أي شيء من الجمود ، أو تقليد الآباء والجدود ، وجران التعصب ، دون اعترافهم بالحق .. وإن الذين يتمتعون بهذه الخصائص ، ينسجمون مع نظام الله الذي يسير عليه هذا الكون كله ، ويتكيف معهم ، ويكتب لهم التوفيق لاتباع ذلك الطريق السوي الذي يؤدي - في نهاية المطاف - إلى نعيم الآخرة الأبدي ، وأولئك هم المفلحون .

وإنما يصل إلى الحق من كان ينشده ويبحث عنه ، ومن كان يبحث عنه فلا بُدَّ أن يصل إليه ويدركه ، فإنه قد تذوب هنا - في طريق الحق - الفجوات والفواصل كلها ، بين البحث عنه ونشدانه ، وبين الوصول إليه وإدراكه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْتَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦١﴾ حَتَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

حَتَّمَ اللهُ : طبع الله .

وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ : انصرفوا إليهم وانفردوا بهم .

وَيَمُدُّهُمْ: يزيدهم أو يميلهم .

طُغْيَانِهِمْ: مجاوزاتهم الحد وغلوهم في الكفر.

يَعْمَهُونَ: يعمون عن الرشد أو يتحIRON .

إن أحداً منا، لو أغمض عينيه لا يبصر الشمس وهي طالعة في كبد السماء، كما أنه لو حشا أذنيه قطناً، لا يسمع شيئاً مما يرتفع في الخارج من صوتٍ ونداءٍ، هكذا هو الحال بالنسبة إلى دعوة الحق، إن دعوة الحق مهما كانت صريحةً وواضحةً في حد ذاتها، إنها لا تكاد تكون مفهومةً، أو تحظى بالقبول عند أحدٍ من الناس، إلا إذا فتح لها أبواب قلبه، فإن من أغلق أبواب قلبه، لا يُحرك سواكته نداء الله الصامت، المتفجر من أرجاء الوجود كله، ولا عملية الإعلام والإنذار، التي يقوم بها الرسول المبلغ عن الله عليه الصلاة والسلام.

إن دعوة الحق حينما تقوم بصورتها النقية الخالصة من كل شوبٍ تكون قائمةً على أمتن أساسٍ من الحقيقة والأصالة، وعلى أبلغ ما يكون من الانسجام مع الفطرة الإنسانية، الأمر الذي لا يمكن معه أن يتعذر على أحدٍ إدراك كنهها، وفهم نوعيتها، إذ ما من أحدٍ يُقِيلُ عليها بذهنٍ مفتوح، ويتأمل فيها بنظرةٍ موضوعيةٍ وطويةٍ فطريةٍ، إلا وجد قلبه مشدوداً إلى الاعتراف بأنها عين الحق، ولكن الدعوة عندئذٍ تقف أمامها عقبة كأداء تعوقها عن الحركة، تتمثل في الهيكل الاجتماعي السائد حولها، والذي يتشكل مستمداً عناصر تكوينه الخاصة من رواسب القرون المتطاولة، وفي ظل هذا الهيكل تتكون مناصب ورتب دينية أو غير دينية، يحتلها عدد من أفراد المجتمع، يتمتعون بسلطانٍ أي سلطانٍ، كما تنتشر صور من العزة والشهرة، يُعَدُّ المتمتعون بها أعظم رجال العصر، وكذلك تنشأ وتروج ألوان من الحرف والصناعات، وأساليب لكسب المنافع والمصالح تسمح لعددٍ غير قليلٍ من الناس، أن يعيشوا حياةً آمنٍ ورخاءٍ .

وفي مثل هذه الظروف والملابسات - التي وصفناها آنفاً - عندما يقيم الله عبداً من

عباده، من إحدى النواحي المغمورة مبلغاً عنه وداعيةً إلى مرضاته، يصبح مصدر قلق عظيم لأمثال أولئك الناس؛ إذ يبدو لهم أنه سيكدّر صفو حياتهم، ويقضي على كياناتهم!

وثمة شيان ربما يتسبان في الحيلولة بينهم وبين أن يفهموا رسالة الحق - بالرغم من كل ما تتمتع به من الصدق والأصالة - فهماً صحيحاً، أولهما: «الكبر والخيلاء»، والثاني: «حب الدنيا والانغماس في لذاتها»، إن الذين يشغلون مناصب عليا ويتولون مراكز مرموقة في الهيكل الاجتماعي السائد، يعدّون نوعاً من الانتقاص من شأنهم أن يهمنوا بـ «رجلٍ صغيرٍ أو ضئيل الشأن»؛ ويستتبع هذا الشعور إثارة نفسية العُجب في دخائل نفوسهم، مما يؤدي بهم إلى اتخاذ موقف الاستخفاف والازدراء تجاه شخصية الداعي، وبالتالي إنكار دعوته ورفضها رفضاً باتاً، وكذلك المنافع الدنيوية هي الأخرى تقف بمثابة حجر عثرة دون قبول الحق، وتلك هي الحالة الحاجزة عن اعتناق الحق، التي عبّر عنها في القرآن بـ «الختم على القلوب» وهي تتمثل في الذين يعدّون موضوع دعوة الحق مما لا يؤبه له، ولا يأخذونه مأخذ الجد، وفي الذين استشرى في نفوسهم داء العُجب والاستكبار، واستعبدهم الشهوات وزينة الحياة الدنيا، فإن أذهانهم تندمج - تلقائياً - تحت حجج كثاف تراكم عليها بشكل غير ملموس، والتي بدورها لا تسمح بأن يجد نور الحق مدخلاً أو طريقاً للنفوذ إلى أذهان هؤلاء، إن الإنسان إذا ما تحركت في داخله نفسية العناد بالنسبة لأمر ما، واستحكمت حلقاتها، بحكم الامتداد الزمني، فإنه يكاد يكون من المستحيل عليه أن يفهم أو يقتنع بمعقولية ذلك الأمر، مهما تضافرت الأدلة القوية الواضحة على التأكيد بصحته وصدقه.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾  
 يُخَذِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَذِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ فِي  
 قُلُوبِهِمْ مَّرَدٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٠﴾ وَإِذَا  
 قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿٧١﴾ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ

الْمُفْسِدُونَ وَلٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٣٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلٰكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَّحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤١﴾

خَتَمَ اللهُ: طبع الله.

وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ: انصرفوا اليهم وانفردوا بهم.

وَيَمُدُّهُمْ: يزيدهم أو يميلهم.

طُغْيَانِهِمْ: مجاوزاتهم الحد وغلوهم في الكفر.

يَعْمَهُونَ: يعمون عن الرشد أو يتحIRON.

إن الذين تسيطر عليهم المصالح المادية في الحياة، ولا يهمهم شيء سواها، يعدون الرجل من السفاهة بمكان؛ إذا هو نذر وجوده كله في سبيل خدمة الحق، على أن أمثال هؤلاء لا يكونون مخلصين - في حقيقة الأمر - إلا لمنافعهم الدنيوية العاجلة، غير أنهم - مع ذلك - قد يقيمون علاقةً ظاهريةً بالحق أيضاً، ويعدون هذا عقلاً وحصافةً؛ ظناً منهم أنهم يتمكنون - عن هذا الطريق - من الحفاظ على حظوظهم الدنيوية، وقد يمكنهم - علاوةً على ذلك - أن يحصلوا على وسام شرف لخدمة الحق أيضاً.. إلا أن هذا نوع من الخداع للنفس، إذ إن كل زمن يقضونه يكشف عن اتساع الفجوة بينهم وبين «الدين الحق»؛ وزيادة اقترابهم من «الدين النفعي»، الذي يدينون به، وهكذا يتراكم مرضهم النفاقي يوماً بعد يوم.. وعندما يرى هؤلاء المسلمين الصادقين في إسلامهم، يُحِيل إليهم أنهم إنما يلقون بأنفسهم إلى التهلكة والضياع، حيث - طبقاً لرؤيتهم النفعية المادية البحتة - لا داعي لمثل هذا التضاني والفداء، ولا طائل تحته،

وبالمقابل هم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، وأنهم قد اتخذوا من الأمر موقف البناء والإصلاح، وذلك لأنهم يبدو لهم أن هذا الموقف المزدوج الذي تبنوه من شأنه أن يمكن المرء من استكمال مسيرته بكامل الهدوء وتمام النجاح، وبدون أن يستعدى أحداً من الناس ضده، أو أن يتورط في نزاعٍ ما مع الآخرين، ولكن ذلك ليس إلا لقلّة اوعى وانحطاط في مستوى الشعور، إذ لو فكّر هؤلاء في القضية بعمق، وأمعنوا النظر فيها لتبين لهم أن «الإصلاح» حقيقة، إنما يتمثل في أن يصير الناس كلهم عباداً لله وحده، مخلصين له الدين كله، وعلى العكس من ذلك، فإن عملية «الإفساد» تتمثل في وضع العقبات والعراقيل في طريق الحركة التي أقيمت من أجل تصحيح صلة العباد بالله رب العالمين، إن تجارتهم هذه - حقيقة - تجارة بائرة، وليست رابحة كما تبدو في ظاهر أمرها، ذلك لأنهم يتركون «الحق الخالص الأصيل» ويكسبون «الحق الزائف والمغشوش»، الذي لن يغني عن أحد شيئاً، إن اتخذ الإنسان موقفاً غايةً في الحذر واليقظة، تجاه ما يتعلق بأموره الدنيوية، وبالمقابل اكتفاءه بآمالٍ عفووية وتوقعاتٍ عابرة سريعة بالنسبة إلى قضايا الآخرة؛ بمثابة افتراء الكذب على الله تعالى، والذين يفعلون ذلك، سوف يعلمون أن الحياة الكاذبة الخادعة هذه ستجعلهم يستحقون عند الله عذاباً أليماً، وليس أي شيءٍ سواه .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٧﴾ صُمُّ بَكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِيٓءِٔاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۗ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾

مَثَلُهُمْ: حالهم العجيبة . أو صفتهم .

اسْتَوْقَدَ نَارًا: أوقدوها .

بُكْمٌ: خرس عن النطق بالحق.

كَصَيْبٍ: الصيب: المطر النازل أو السحاب .

يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ: يستلبها ويذهب بها بسرعة .

قَامُوا: وقفوا وثبتوا في أماكنهم متحيرين .

إذا نحن دخلنا حجرةً مظلمةً، وفيها من الأشياء ما هو أبيض اللون، وما هو أسود اللون، فما دام الظلام سائداً لا يمكننا التمييز بين أسود الأشياء وأبيضها، ولكن ما هي إلا أن نشعل المصباح حتى يتبين لنا الشيء الأسود من الشيء الأبيض من دونها لبسٍ واشتباهٍ، هذا هو الحال بالنسبة للدعوة التي يبعث بها الله أنبياءه، بحيث إنها تمثل إشراقة النور الإلهي الذي ينبثق لكي يمزق الستائر الكثيفة المسدولة على الهداية والضلالة، وبالتالي يتضح - في ضوءه - ما هو العمل الصالح، المطلوب فعله، وما جزاؤه، وما العمل السيئ، المطلوب تركه، وما هو عقابه؛ كل ذلك يتضح انضاحاً جليلاً لا غموض فيه ولا خفاء .. إلا أن الذين كانوا قبلئذٍ، قد أخضعوا الحق لأهوائهم، بدلاً من أن يجعلوا من أنفسهم أتباعاً للحق، يفاجأون بهلع واضطرابٍ من هذا الوضع المنقلب، ويتحرك ما قد استكن في دخائلهم من الحقد والحسد، والكبر والخيلاء، ويحدق بهم من كل جانب، وما إن ينظروا إلى وجوههم في «المرأة الإلهية» حتى تنعكس عليها ما يكمن في صدورهم من نفسياتٍ سلبية، وتبلغ عصبياتهم الداخلية من السيطرة والاستحواذ على مداركهم مبلغاً كبيراً - بالرغم مما يتمتعون به من الأعين والأذان والألسنة - فيصير حالهم وكأنهم عمي، وصم، وبكم؛ إذن فهم لا يستطيعون أن يسمعوا نداءً لأي مناد، ولا أن يستجيبوا لندائه، كما لا يمكنهم أن يهتدوا بأي نوع من الآيات والمعالم التي تهدي إلى صراط الحق؛ مهما كانت تلك المعالم جليةً وبيننةً في حد ذاتها، ولقد كان من الجدير بهم أن يأخذوا أنفسهم بتدبير النداء، ويتأملوا فيه، ولكنهم - بدلاً من ذلك -

حاولوا الفرار والتخلص منه، عن طريق عدم الإصغاء إليه ألبتة، واتخاذ موقف اللا مبالة نحوه، وعدم إعارته أهمية تُذكر .

وكذلك ثمة نفسية أخرى، ربما تحول دون اعتناق الحق، وهي نفسية الخوف، إن المطر نعمة من الله جد عظيمة، ولكن المطر إذ ينزل يحمل معه - طبعاً - صاعقة الرعد وخطفة البرق أيضاً، ما يجعل الجبناء وضعفاء القلوب من الناس تشخص أبصارهم وترتعد فرائصهم خوفاً وفزعاً منه، وهكذا فإن دعوة الحق حين تقوم من قِبَل الله تعالى، فإنها إذ تفتح - من جهة - إمكانيات عظيمة لسعادة الناس وفلاحهم في كل مجالٍ من مجالات الحياة، فهي - من جهةٍ أخرى - تنطوي أيضاً على مخاطر مؤقتة؛ منها - على سبيل المثال لا الحصر - أن الانضمام إلى الدعوة يستتبع ضرورة القضاء على الأنانية والاستبداد، كما ويستلزم إلغاء خريطة الحياة الجاهزة، ويطلب بإعادة صياغتها على أسسٍ جديدة، ويدعو إلى المواجهة والصمود أمام وطأة مسائل ومشكلاتٍ حادة، تتمخض عن الاصطدام بالبنیان التقليدي السائد، والتركيز على الحقائق الصادقة، مكان الاعتماد على الآمال والأمان الكاذبة، فيما يتصل بقضية الآخرة هذه وأمثالها، مما يجعلهم يُحجمون تارة، ويتقدمون بعض الخطوات تارةً أخرى، ولكن مع شيءٍ كثيرٍ من الحذر والتذبذب، غير أن هذه الخطوات المصحوبة بالحذر والاحتياط لن تغني عنهم شيئاً، فإنهم بنكوصهم عن النداء الإلهي، وعدم تلبيته عن رضا قلبي وطواعيةٍ داخلية، إنما يجعلون أنفسهم يستحقون العذاب الشديد عند الله تعالى .

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٦٠﴾  
الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ  
مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي  
رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ  
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٢﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا

النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ وَنَشَرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
 أَنَّ هُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا  
 الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا  
 خَالِدُونَ ﴿١٢﴾

الأَرْضُ فِرَاشًا: بساطا ووطاء للاستقرار عليها.

أَنْدَادًا: أمثالا من الأوثان تعبدونها .

وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ: أحضروا آهتكم أو نصراءكم .

مُتَشَابِهًا: في اللون والمنظر لا في الطعم .

إن الله هو خالق الإنسان، وهو وحده خالق لجميع ما في السموات وما في الأرض،  
 ولقد أوجد الحق سبحانه وتعالى هذا الكون كله بغاية من الحكمة، وسيّره على نظام  
 متناهٍ في الإحكام والانتقان، ثم هو لم يزل قائماً على تدبير أمره ورعاية شئونه كل حين  
 وأن، ولذا فإن الموقف الوحيد الذي ينبغي أن يتخذه الإنسان نحو وجود الله، هو أن  
 يؤمن ويرضى به خالقاً، ومالكاً، ورازقاً، ولا يشرك به شيئاً، وأن يجعل الله غاية ما يبغيه  
 ويطمح إليه في الحياة، حتى يكون الله عنده بمثابة كل شيء، ولكن بما أن الله عز وجل  
 لا تدركه الأبصار، فإن الإنسان قد يحدده بريق شيء من الأشياء المشاهدة المحسوسة  
 فيأخذ عليه منافذ الإدراك، لدرجة أنه يرفعه إلى مقام «الألوهية»، ويتخذ من أحد  
 المخلوقات ندأً لله بصفة جزئية أو كلية، مع إطلاق اسم الإله عليه أحياناً، أو بدون أن  
 يُسميه باسم الإله أحياناً أخرى .

وتلك هي ظاهرة انحراف الإنسان وضلاله الجذري في كل العصور والأزمنة، وإن  
 رسالة النبي المرسل من عند الله تتمثل في دعوة الإنسان إلى أن يتخلى عن كل شيء أو  
 شخص رفعه إلى درجة العظمة الإلهية، وتوجيهه إلى أن يُفرد الله الواحد الأحد بكل،

صفات العظمة والكبرياء والجبروت ليس إلا، إن قيام الدعوة لتوجيه البشر إلى التوحيد الخالص وإخلاص العبادة والعبودية لله وحده، يكون دائماً شديداً الوطأة على أولئك الذين علقت قلوبهم بغير الله فاتخذوهم آلهة، وإن علاقة أمثال هؤلاء الناس بأهنتهم المصطنعة (المزعومة)، بما تكون قد بلغت من التأصل والاستشراء في أعماقهم لدرجة أنهم لا يستطيعون الانفكاك عن أسرها، فمن أجل ذلك لا يستطيعون أن يستيقنوا أن هذه الآلهة كلها باطلة، وليست على شيء من الحقيقة، وأن رصيد الحقيقة كله، إنما تتمتع به تلك الرسالة الإلهية التي يتم إعلانها على لسان من اختاره الله لهذه الرسالة .

إن هذه الرسالة الإلهية، هي في صميمها ذات شأنٍ؛ إذ إن ما تتميز به من الأسلوب المعجز؛ غير القابل للتقليد والمحاكاة، وما تستند إليه من البراهين والأدلة القاطعة التي لا تُدحض، كل ذلك يدل دلالة صارخة على أن مصدرها هو الله تبارك وتعالى، وبالتالي فإن الذين جحدوا بها - بالرغم من ذلك كله - ليس لهم أن يجدوا في كون الله غير جهنم ملجأً ومستقراً، أما الذين أدركوا كلام الله وآمنوا به، فكأنهم قد استطاعوا مشاهدة عالم الغد في عالم اليوم، وأولئك هم الذين يدخلون جنات الفردوس في الآخرة، وهم فيها خالدون .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا بِضُلِّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ

الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٢٦﴾

أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ: قصد إلى خلقها بإرادته قصدا سويا بلا صارف عنه .

فَسَوَّاهُنَّ: أتمهن وقومهن وأحكمهن .

إن أول ما يجب على العبد - أي عبد - نحو الله ربه، هو أن يأخذ نفسه بإيفاء «عهد العبودية»؛ ذلك الذي تم التعاقد عليه بين الخالق والمخلوق منذ بدء الخليقة، ثم عليه ثانياً، أن يكون في حياته مع الآخرين من بني جنسه، محافظاً على الروابط التي أمر الله بها أن توصل وتُقوى، والواجب الثالث هو أن يناصر رسالة الحق، فيما إذا بعث الله بها أحد عباده، وكلفه بتبليغها للناس كافة، أو - على أقل تقدير - عليه ألا يُعرقل مسيرتها عن طريق تنفير الناس منها؛ متخذاً أساليب التمويه وإثارة الشبهات ضدها، وما إلى ذلك، إذ إن الدعوة إلى الحق، هي في حقيقة أمرها، محاولة تتوخى إعادة الناس إلى الوضع الفطري السليم الذي فطرهم الله عليه، ولذا فإن الشخص الذي يصد الناس عنها فإنها يرتكب جريمة الإفساد والتخريب في الأرض .

إن فضل الله المتمثل في إخراج الإنسان من العدم إلى حيز الوجود، هو فضل كبير لدرجة أنه لا يسع الإنسان ولا ينبغي له بإزائه إلا أن يلقي بتمام وجوده بين يدي الله، ثم إن الله سبحانه وتعالى - مع ذلك - لم يقف من شأن الإنسان - بعد أن خلقه - موقف الإهمال، بل اهتم به أيما اهتمام؛ حيث أسكنه على أرض كانت قد صُنعت على وجه أقصى ما يكون من التلائم مع حاجاته ومقتضيات حياته، ثم إن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد، بل يتجاوزها إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير؛ إن أخطر الأمور وأشدّها حساسيةً بالنسبة للإنسان هو كونه في كل لحظة على شفا حفرة الموت؛ إذ هو لا يدري ألبته متى ستُفاجئه منيته، وبالتالي سوف يقف أمام مالك الكون كله، ليحاسبه على ما أتى في حياته الدنيا من عملٍ، إن هذا كله يقتضي أن يعيش الإنسان على أساس ذكره

تعالى الدائم وطاعته المستمرة لله، وأن يظل عبداً خاضعاً مطيعاً له سبحانه طيلة حياته.

وثمة سؤال يفرض نفسه وهو: ما الذي يدفع الكثيرين من الناس إلى رفض «الدعوة النبوية»، بحيث إنهم لا يكادون يقبلونها؛ بالرغم من كونها غايةً في الوضوح والإقناع، ومدعمةً بدلائل قاطعة لا تدحض؟! إن السبب الأكبر في ذلك هو «نزعة الجدال بالباطل القائم على تمحل النقائص دونها مبرر»، إن المرء إذا كان يفتقد روح الاعتبار والتذكر، ويعوزه السداد الفكري، فإنه لا يأخذ أي شيء بما أخذ جدّي، حيث إن شخصاً كهذا، إذا ما عُرض عليه أي دليل أو برهان يثبت أحقية الدعوة، فإنه لا يلبث أن يزعم أن هذه الدعوة ليس من شأنها أن تدخل في حيز المعقول، حتى تستحق الإذعان والقبول، إذ إنها لو كانت دعوة معقولة - على حد زعمه - لم تكن لتنتطوي على سخافات وترهات من هذا النوع، غير أن الذين يتمتعون بسداد الفكر والجدية، والذين ينظرون إلى الأمور من وجهة نظر الاعتبار والتذكر، فلا يعوقهم أبداً أي عائق عن معرفة الحق وقبوله؛ وإن كان الحق قد جاءهم في صورة مثل بعوضة فما فوقها.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّى جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِیْفَةً ۗ قَالُوْۤا اَجْعَلْ فِیْهَا مَنْ یُّفْسِدُ فِیْهَا وَیَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَیَحْنُ نُسُجًا یَّحْمَدُكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ اِنِّىۤ اَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ۝۱۰ وَعَلَّمَ ءَادَۤمَ الْاَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلٰى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ اُنۢبِئُوْنِیۤ بِاَسْمَآءِ هٰٓؤُلَآءِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِیۡنَ ۝۱۱ قَالُوْۤا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا اِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۗ اِنَّكَ اَنْتَ الْعَلِیْمُ الْحَكِیْمُ ۝۱۲ قَالَ یٰۤاٰنۢبِئُهُمْ بِاَسْمَآئِهِمْ ۗ فَلَمَّآ اُنۢبَاَهُمْ بِاَسْمَآئِهِمْ قَالَ اَلَمْ اَقُلْ لَّكُمْ اِنِّىۤ اَعْلَمُ غَیۡبَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاَعْلَمُ مَا تُبۡدُوْنَ وَمَا كُنْتُمْ تَكۡفُرُوْنَ ۝۱۳﴾

وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ: يريقها عدوانا وظلما .

نُسُجٌ بِحَدِيدِكَ: نزهك من كل سوء مثين عليك.

وَنُقَدِّسُ لَكَ: نمجدك ونظهر ذكرك عما لا يليق بعظمتك .

«الخليفة» في اللغة: هو من يخلف غيره أو ينوب عنه، وقد شاع إطلاق هذا اللفظ على الحكام والسلاطين، الذين كانوا يجلسون على كرسي الحكم على التوالي؛ الواحد تلو الآخر، ومن هنا، فقد صار لفظ الخليفة - من حيث المفهوم الاستعمالي الشائع - مرادفاً لمن يتمتع بالسلطة والسيادة إطلاقاً.

إن الله عز وجل، حين خلق الإنسان؛ قرر أيضاً أن يسكنه الأرض بوصفه كائناً يتمتع بالسلطة والسيادة، وحرية الإرادة والتصرف في ذاته وفي ما حوله؛ الأمر الذي جعل الملائكة يتساءلون حذراً مما ستسببه حرية الإنسان، وما مُنح غير ذلك من القدرات والصلاحيات، في انحرافه عن الجادة والخط المستقيم، وبالتالي سوف يتجه نحو الإفساد في الأرض، بدلاً من الإعمار، وإراقة الدماء بغير الحق، بدلاً من التمسك بالحق والعدل؟! إن حذر الملائكة هذا لم يكن حذراً باطلاً، كما أن الله سبحانه وتعالى لم يكن على غير علم بهذا الاحتمال ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، ولكن الشيء الذي كان موضع عناية الله عز وجل؛ والذي لم يتفطن له الملائكة أول الأمر، هو أنه إن كان هناك كثيرون من بني الإنسان، من سيُسيئون استخدام حريتهم وقدرتهم؛ فيضلون وينحرفون عن الطريق السوي، فإنه سيكون هناك كذلك، عدد ملحوظ يشتمل على أولئك الأفراد الذين يعرفون أقدار أنفسهم ومقام ربهم حق المعرفة، ولا يجيدون عن سبيل الحق برغم حريتهم وقدراتهم على الانحراف، ويسلكون طوعاً وبإرادتهم الحرة مسلك الطاعة لله، وتفويض الأمر كله إليه بدون أي ضغطٍ خارجي، بيد أن تعداد هذا الصنف الثاني من الناس يكون ضئيلاً نسبياً، إلا أن شأنهم يكون كشأن حبوب الزرع؛ إن ما تحمله سنابل الزرع من التبن يكون مقداره دائماً أكبر بكثير مما تحمل من الحبوب، إلا أن الحبوب، رغم قلتها وضآلة مقدارها، تكون ثمينة وذات قيمة لدرجة أنه - من أجل الحصول عليها - يُفسح المجال لكمياتٍ متراكمةٍ من التبن والخشب أيضاً لكي تنمو وترعرع معها..

وقد أحضر الله جل شأنه، بين يدي آدم، جميع أفراد ذريته جملةً واحدةً، ثم توجه سبحانه إلى الملائكة قائلاً: انظروا! هؤلاء بنو آدم! فهل تجربونني عن شأن كل فردٍ من هؤلاء على حدة؟ من هو؟ أي ما اسمه؟ وما هي صفاته وخصوصياته المميزة له عمن سواه؟ وظل الملائكة عاجزين عن تقديم أي جوابٍ عن السؤال الموجه إليهم، لعدم معرفتهم بذلك، وقد زود الله آدم بعلم أسمائهم كلها، أو بكلمةٍ أخرى، أطلعه على شخصياتهم ومزايا ذواتهم، ثم قال له أن يقوم بتعريفهم إلى الملائكة، وعندما عرف آدم بهم جميعاً، علموا أنه مع كون ذرية آدم، مشتملةً على المجرمين والمفسدين في الأرض، فإنها سيكون فيها أنبياء ورسول كرام، وأناس أتقياء صالحون؛ يستحقون عند الله درجاتٍ عاليةٍ وجنات النعيم... إلخ.

إن أكبر جريمة يرتكبها الإنسان، بعد الكفر والجحود برب العالمين، هو إثارة الفساد في الأرض، وإراقة الدماء بغير الحق، والشأن أنه لا يحل لأي فردٍ أو جماعةٍ أبداً، أن تقوم بفعل شيء يؤدي إلى زعزعة النظام الفطري الذي قرره الله تعالى في الأرض، حيث يقتل الإنسان أخاه الإنسان، إن أيما فعلٍ من هذا القبيل يستثير الغضب الإلهي، ويبعد الإنسان من رحمة الله تعالى، إن الحفاظ على النظام المقرر من قبل الله تعالى، واستمراره في الأرض هو إصلاحها، وأما الإخلال بنظام الأرض الفطري فهو الإفساد فيها.

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ١٦٠ ﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ١٦١ ﴿ فَآزَاهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ١٦٢ ﴾ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ١٦٣ ﴿ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ١٦٤ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١٦٥ ﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ١٦٦ ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ

هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ  
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣٩﴾

اسْجُدُوا لِآدَمَ: أخضعوا له أو سجدوا تحية وتعظيم .

رَعَدًا: أكلًا واسعًا أو هنيئًا لا عناء فيه .

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ: أذهبها وأبعدهما .

لقد أقام الله آدم بين يدي الملائكة وإبليس، ومن خلال امتحان السجدة؛ نبهه تنبيهاً عملياً بما سيدور عليه سلوكه في الحياة الأرضية، وهو سلوك متجه في أحد الطريقتين المتقابلين: الأول هو طريق الاستسلام المطلق لأمر الله تعالى كالملائكة؛ وإن كان ذلك الاستسلام بمعناه العملي يعني إخضاعه نفسه أمام عبده هو دون رتبة ومنزلة، والثاني هو طريق إبليس المتمثل في التعالي والترفع عن الاعتراف والخضوع للغير، إن حياة الإنسان بأكملها، إنما هي معترك هذا الامتحان، بحيث إن الإنسان في هذه الحياة، يتحتم عليه دائماً أن يتخذ خلال التعامل مع الآخرين أحد الموقفين، ولا ثالث لهما:

أولهما: «الموقف الملائكي» وهو أن يأخذ الإنسان نفسه بالخضوع التام أمام مقتضى الحق والعدل في كل شأن من شؤون الحياة الدنيا، طاعةً لله ربه؛ وامثالاً لأمره.

والآخر: هو «الموقف الشيطاني» وذلك يعني أن الإنسان إذا ما عرض له أمر من الأمور؛ فيقع تحت سيطرة الحقد والحسد، وتنبعث في داخله نفسية الكبر والاعتزاز، مما يؤدي به إلى مجانبة الصواب، فلا يعترف بما لغيره من الحق عليه، ولا يدعن إلى ما يفرض عليه العدل والإنصاف .

وإن قضية «الشجرة المحظورة» هي الأخرى تمثل درساً عملياً في هذا السياق؛ فهي تفيدنا أن مبدأ انحراف الإنسان هو أن يكون قد تأثر بما يوسوس له الشيطان، وبالتالي يتخطى تلك الحدود التي قد نهى الله تعالى عن تحطيتها، وإنه ما إن تمتد يد الإنسان إلى

تناول « الثمرة المنهي عن أكلها » حتى يُحرم هو من نُصرة الله، وبعبارة أخرى يفتقد استحقاق الجنة، غير أن هذا الحرمان ليس حرماناً نهائياً بحيث إذا وقع مرةً فلا يمكن بعد ذلك استدراكه وتلافيه، إذ إن فرصة التوبة لا تزال مفتوحة أمام الإنسان، ولذا فعليه أن يعود إلى ربه ثانياً؛ سائلاً عفوه، راجياً رحمته، مصححاً مسار حياته وسلوكه، مؤكداً العزم على الثبات والاستقامة، وعدم الانحراف عن الجادة، وإن العبد حين يتوجه إلى ربه تائباً كهذه التوبة، فإن الله تعالى أيضاً يتوب عليه، أي يقبل توبته، ويطهره من دنس الذنوب تطهيراً كأن لم يكن قد ارتكب ذنباً.

إن قيام الدعوة إلى الله في أي بقعة من بقاع المعمورة، هو امتحان عسير من هذا النوع، كما أن الداعية إلى الحق يكون بمثابة « آدم » بالنسبة لمخاطبته، ومن هنا، فليس للناس أن يتخذوا نحوه أي موقف غير الخضوع والاستسلام له، والإذعان العملي إلى ما يدعو إليه، وأما إذا لم يسمح لهم كبرهم وغرورهم بأن يعترفوا به، ولم تتسع صدورهم لقبول دعوته، فكأنهم سلكوا مسلك الشيطان، إن الله جلّ وعلا لا يظهر للناس في هذه الدنيا عياناً وجهراً، إنما هو يختبر الناس من خلال آياته، إذن فإن من وجد الله في آية الله، فقد وجد الله حقاً، ومن لم يجد الله في آية الله فقد حُرّم من الله.

﴿ يٰٓبَنِي إِسْرٰٓءِيْلَ اذْكُرُوْا نِعْمَتِي الَّتِي اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَاَوْفُوا بِعَهْدِيْ اَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَاِيْنِيْ فَاَرْهَبُوْنِ ﴿١﴾ وَاٰمِنُوْا بِمَا اَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُوْنُوْا اَوَّلَ كٰفِرِيْهِ ؕ وَلَا تَشْتَرُوْا بِعٰٓيَتِيْ ثَمٰنًا قَلِيْلًا وَاِيْنِيْ فَاَتَّقُوْنَ ﴿٢﴾ وَلَا تَلْبِسُوْا الْحَقَّ بِالْبٰٓطِلِ وَتَكْتُمُوْا الْحَقَّ وَاَنْتُمْ تَعٰمُوْنَ ﴿٣﴾ وَاَقِيْمُوا الصَّلٰوةَ وَاَتُوْا الزَّكٰوةَ وَاَرْكَعُوْا مَعَ الرَّاكِعِيْنَ ﴿٤﴾ \* اَتَاْمُرُوْنَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ اَنْفُسَكُمْ وَاَنْتُمْ تَتْلُوْنَ الْكِتٰبَ ؕ اَفَلَا تَعْقِلُوْنَ ﴿٥﴾ وَاَسْتَعِيْنُوْا بِالصَّبْرِ وَالصَّلٰوةِ وَاِنَّهَا لَكَبِيْرَةٌ اِلَّا عَلَى الْخٰشِعِيْنَ ﴿٦﴾ الَّذِيْنَ يَظُنُّوْنَ اَنْهُمْ مُّلٰقُوْا رَبِّهِمْ وَاَنْهُمْ اِلَيْهِ رٰجِعُوْنَ ﴿٧﴾ ﴾

إِسْرَائِيلَ: لقب يعقوب عليه السلام.

فَارْهَبُونَ: فخافون في نقضكم العهد.

وَلَا تَلْبَسُوا: لا تخلطوا، أو لا تستروا.

بِالْبُرِّ: بالتوسع في الخير.

وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ: لشاقة ثقيلة صعبة .

الْحَاشِيَعِينَ: المتواضعين المستكينين .

يَظُنُّونَ: يعلمون ويستيقنون .

أعظم ما يُنعم به الله على أي شعبٍ من الشعوب؛ هو أن يبعث إليه رسوله، ويوحى إليه ما يوضح لذلك الشعب الطريق المفضي به إلى الفلاح الأبدي والسعادة السرمدية، ولقد كان بنو إسرائيل ( الشعب اليهودي ) هم الذين يحملون هذه المنة الإلهية قبل بعثة النبي الخاتم - عليه الصلاة والسلام - غير أن دينهم لم يعد يحظى لديهم بمكانته الأصلية على مرّ الزمن، حيث كان قد تحول - في نهاية الأمر - إلى شيءٍ أشبه ما يكون بطقسٍ أو رسمٍ تقليديٍّ، يتوارثونه خلفاً عن سلفٍ؛ وليس شيئاً يختاره الإنسان بناءً على قرارٍ شعوريٍّ، وإرادةٍ حيّةٍ واعيةٍ، وما أن ظهر النبي العربي - عليه الصلاة والسلام - حتى انكشف النقاب عن الحقيقة؛ فالذين كانوا منهم يمتلكون روحاً لا تزال تشع الصفاء، وشعوراً لا يزال ينبض بالحياة، ما لبثوا أن عرفوا صدقه - عليه الصلاة والسلام - فصدقوا به، وبادرُوا بالانضواء تحت لوائه، وأما الذين كان الدين المتوارث عن الآباء قد صار عندهم بمثابة رسمٍ تقليديٍّ فإنهم أنكروا صوت النبي - عليه الصلاة والسلام - وأمعنوا في الإنكار، وبالتالي رفضوا دعوته رفضاً باتاً، واتخذوا جبهة المعارضة ضده .

ومع إن « التوراة » كانت تتضمن آياتٍ بينات بشأن نبوته - عليه الصلاة والسلام ؛

ما كانت تبلغ من الوضوح والصراحة درجة أنه لم يكن معها أمر الاقتناع والتأكد من صدقه وحقيقة رسالته - عليه الصلاة والسلام - أمراً متعذراً على اليهود، ولكنّ الخوف من فوات المصالح والمنافع الدنيوية التي كانوا يجنونها لأنفسهم، هو الذي حال دون اعترافهم برسالته وتلبية دعوته - عليه الصلاة والسلام - بحيث إنهم كانوا من قبل، يتولون الرئاسة في ظل الهيكل الديني القائم، الذي كان قد تكون لديهم بفعل القرون المتطاولة، كما إنهم كانوا قد أصبحوا مرجع الدهماء من الناس، لتربّعهم على مقاعد الشيوخ والعظماء، وكانت تنهال عليهم صنوف من الهدايا والندور في المناسبات الدينية طوال السنة، ومن هنا فقد خيل إليهم أنهم إن صدقوا برسالة النبي العربي - عليه الصلاة والسلام - فإن سيادتهم الدينية سوف تكون أثراً بعد عين، وأن ببيان منافعهم سينهار، وبما أن اليهود كانوا إذ ذاك يحتلون مركز التمثيل الديني (الرّعاية الدينية) في الجزيرة العربية، فإن الناس بطبيعة الحال كانوا يسألونهم عن النبي العربي - عليه الصلاة والسلام، فهم - في نظرهم السند فيما يتصل بموضوع الوحي السماوي، ولقد كان اليهود يقتنصون مثل هذه الفرص بخبثٍ ودهاءٍ بالغين، لترويج شيء من الأباطيل والمفتريات التي تجعل شخصية الرسول ودعوته مثار الجدل والارتياب عند الناس، ومن المفارقات أنهم في أثناء حديثهم إلى الناس كانوا ينصحونهم قائلين: أن اتبعوا الحق، وكونوا أنصار الحق... إلخ. ولكن عندما اقتضى الأمر أن يأخذوا هم أنفسهم فعلاً باتباع الحق ونصرته، لم يستطيعوا، فلم يتبعوا الحق ولم ينصروه.

وإن أمر التلبية لنداء الله تعالى؛ إذ يكون بحيث يفرض على الإنسان حتمية القيام بتغيير جذري لخريطة حياته، ويستلزمه أن ينزل بذات نفسه عن مقاعد الشرف والوجاهة، فإن الأمر عند ذلك ليتخذ شكلاً رهيباً ومثقلًا جداً بالنسبة لأولئك الذين لم ينالوا ما نالوا من السمعة والمكانة الدينية إلا في إطار هذه المظاهر الدنيوية البراقة، ولكن الذين يمارسون حياتهم على أساس من الخشوع، فإن بريق مثل هذه الأشياء، والظواهر لا يشكل لهم أيًا عائقٍ أو صعوبة ذات بالٍ، ذلك أنهم يجدون في ذكر الله،

والإنفاق في سبيل الله، وفي الاستسلام لأمر الله، والصبر لله؛ يجدون في ذلك كله خير بديل لما يجده الآخرون من الناس في زخارف الدنيا ومُغرياتها، فإنهم يدركون جيداً أن الشيء الذي ينبغي أن نحسب له ألف حساب، وأن نخافه كل الخوف، إنما هو غضب الله تعالى، وليس مخاوف هذه الدنيا الفانية.

﴿يَبْنَى إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنَّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْنَا الْعَجَلَ مِنَ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنِّي كُنْتُ نَذِيرًا لَّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ أَتَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَإِنِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْبُدُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٨﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦١﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٨١﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٨﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٩٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٩١﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٩٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٩٦﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٩٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٩٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾

﴿٤٧﴾

العالمين: عالمي زمانكم .

لَا تَجْزِي نَفْسٌ: لا تقضي ولا تؤدي نفس .

عَدَلٌ: فدية .

يَسْؤُمُونَكُمْ: يكلفونكم ويذيقونكم .

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ: يستبقون بناتكم للخدمة .

بَلَاءٌ: اختبار وامتحان بالنعمة والنقم .

فَرَقْنَا: فصلنا وشققنا .

اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ: جعلتموه إلهاً معبوداً .

وَالْفُرْقَانَ: الشرع الفارق بين الحلال والحرام .

بَارِئِكُمْ: مبدعكم ومحدثكم .

فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ: فليقتل البريء منكم المجرم .

جَهْرَةً: عياناً بالبصر .

الغَمَامَ: السحاب الأبيض الرقيق .

الْمُنَّ: مادة صمغية حلوة كالعسل .

وَالسَّلْوَى: الطائر المعروف بالسماوي .

إن الله تعالى كان قد فضل اليهود على العالمين جميعاً؛ أي أنه تعالى كان قد اختارهم لحمل أمانته الخاصة التي تتمثل في الوحي السماوي، وإيصاله إلى من دونهم من الأمم والشعوب، ثم أفاض الله عليهم نعمه، نظراً لضخامة المسؤولية الملقاة على عواتقهم، وكنأهيلهم لتأديتها خير أداء، وقد وقر لهم كثيراً من الإمكانات وتفضل بالعتق عن الخطايا والزلات التي وقعوا فيها كثيراً، وأيدهم بنصرة منه غير عادية في ظروف وملابسات غير عادية، و « إعطاءهم الخبز من الرب ليأكلوا » (سفر الخروج: ١٦/١٥)، وما إلى ذلك، ولقد تسبب هذا كله في تكوين نظرة خاطئة لدى أجيال

اليهود القادمة فيما بعد، تتمثل قولهم : «إنا شعب الله المختار، وأن نجاحنا في الآخرة مضمون لنا مسبقاً» ولكن هذه المزايا لا يتسنّى استحقاقها لأحدٍ وراثياً، إذ إنها لا تكون مبنية على مجرد الانتماء إلى سلالةٍ أو عرقٍ بعينه، إن مصائر الأفراد اللاحقين لشعبٍ من الشعوب لا يتم تقريرها أبداً على أساس أسلافهم السابقين، بل على أساس كل فردٍ على حدة ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] ، إن يوم الدينونة والعدل الإلهي سيكون يوماً قاسياً وشديداً لدرجة أنه لن يغني عن أحدٍ شيءٌ سوى عمله الذاتي .

والتدين الحقيقي : أن يخضع الإنسان في عبادته لله وحده؛ ويعبده لا يشرك في عبادته أحداً، وأن يؤمن بوجود الله الذي لا تدركه الأبصار بالغيب، حيث لا يشترط لإيمانه رؤية الله جهرَةً وعلانيةً ، وأن يمارس حياته على أساس من التقوى والخشية من حساب الآخرة؛ فيتقوت ويقضى حاجات حياته الأخرى عن طريق الكسب الحلال، ويمنع أهله ومن هم تحت رعايته وسلطته عن إتيان المنكر وسلوك طريق الإجرام والمعصية .

﴿وَإِذْ قُلْنَا أَدْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٢٦﴾ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَلَسْتَبْدُلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴿٣٠﴾

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِفَايْتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا  
صَوَّوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١٠٠﴾

رَغَدًا: أكلا واسعا هنيئا لا عناء فيه.

وَقُولُوا حِطَّةً: قولوا: مسألتنا ياربنا أن تحط عنا خطايانا.

رَجْزًا: عذابا، قيل هو الطاعون.

فَانفَجَرَتْ: فانشقت وسالت بكثرة.

مَشْرَبُهُمْ: موضع شربهم.

وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ: لا تفسدوا فيها.

مُفْسِدِينَ: متعدين في الفساد.

وَقَوْمَهَا: هو الحنطة، أو الثوم.

وَصُرِبَتْ عَلَيْهِمُ: أحاطت بهم أو التصقت بهم.

الذَّلَّةُ: الذل والصغار والهوان.

وَالْمُسْكِنَّةُ: فقر النفس وشحها.

وَبَاءُوا بِغَضَبٍ: رجعوا به مستحقين له.

اختص الله اليهود بنعم وفيرة لم يؤت مثلها أحداً من العالمين؛ الأمر الذي كان -بطبيعة الحال - مستلزماً لأن يكونوا من عباد الله الشاكرين، ولكنهم أتوا بما هو عكس ذلك تماماً، فمن عظيم النعم الإلهية عليهم أن جعلت بلدة كبيرة بحذاقيرها تحت سيطرتهم، وقيل لهم ألا يدخلوها متكبرين، بل خاضعين لله تواضعاً، ومستغفرين إياه لذنوبهم، ولكنهم أخذوا - بدلاً من ذلك - يرددون كلمات فكاهية ساخرة، كما أعدت لهم أغذية فطرية تتمثل في المن والسلوى؛ كي يستطيعوا الحصول على أكبر قدر ممكن من

الوقت الفارغ للقيام بتنفيذ أحكام الله وامثال أوامره تعالى ، ولكنهم بدؤوا يطالبون بتوفير أنواع المآكل الشهية و صنف الأطعمة المسبّكة ، إنهم لم يقنعوا من العيش بمقتلار حاجتهم، بل اندفعوا اندفاعاً لاهثاً وراء البحث عن اللذات ، وانغمسوا في إشباع الشهوات ، وقد بلغوا من القسوة مبلغاً كبيراً للدرجة أن البيئات هي الأخرى لم تعد تجدي شيئاً مع مشاعرهم المتبلدة وقلوبهم القاسية المتحجرة ، والأكثر دلالة على مدى طغيانهم وجرأتهم على المعصية أن عباد الله الذين بُعثوا فيهم ليمنعوهم من غوايتهم، لم يلقوا إليهم أسماعهم؛ ازدراءً بشأنهم، ليس ذلك فقط، بل لقد تضايقوا بوجود المصلحين لدرجة أنهم قتلوهم بغير حق . والسؤال : ما الذي دفع اليهود إلى مثل هذا التمرد على أحكام الله ؟

إن مصدر ذلك في الحقيقة هو ظنهم القائل بأنهم شعب الله المختار؛ الناجي من كل مؤاخذه أو تعذيب على الإطلاق ، لكن القانون الإلهي متناهٍ في العدل ، حيث لا محاباة فيه لأحد، وإن حكمه سيكون حكماً محايداً للغاية؛ حيث لا يميز بين يهودي وغيره، وإن الجنة إنما يستحقها من يعمل عمل أهل الجنة ، وليس من ينتمي إلى هذه السلالة دون تلك ، أو يُعزى إلى هذا الشعب دون ذلك ، إن ممارسة الحياة الأرضية على أساس من الشكر، والصبر، والتواضع، والقناعة، معناها إصلاح الأرض وتعميرها، وعلى النقيض من ذلك، فإن ظاهرة الجحود، والهلع، والتكبر، والشح والجشع، معناها إثارة الفساد في الأرض وتخريبها؛ إذ إن ذلك كله لما يؤدي عاقبة الأمر إلى إحداث خللٍ واهتزازٍ في ذلك النظام الفطري الذي قرره الله تعالى، وهو يمثل اعتداء من الإنسان على الحدود التي رسمها الله له، على حين أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يتصرف كل إنسان في نطاق حدوده هو، ولا يتجاوز أحد دائرة حدوده الذاتية.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرِيَّ وَالصَّبِيَّةَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ  
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

## مَحْرُوثٌ ﴿١٧﴾

هَادُوا: صاروا يهودا.

وَالصَّابِئِينَ: عبدة الملائكة أو الكواكب .

ذكرت الآية طوائف أربع:

أولاهما: المسلمون ، الذين هم أتباع النبي محمد ﷺ .

والثانية: فرقة اليهود التي تقول إنها على دين موسى - عليه الصلاة والسلام .

والثالثة : طائفة النصارى التي تقول : أنها أمة عيسى - عليه الصلاة والسلام .

والرابعة : هي فرقة الصابئين الذين يزعمون أنهم على دين نوح - عليه الصلاة والسلام - والذين سكنوا في سالف القرون بالعراق ، وقيل إنهم كانوا أهل كتاب، يقرأون الزبور، ويصلون للقبلة، غير أن فرقة الصابئة قد انقرضت؛ وأصبحت الآن أثراً بعد عين.

والأمر الجدير بالتسجيل في هذا المقام أن المسلمين - أي الأمة المحمدية - ورد ذكرهم في الآية ضمن أممٍ أخرى تنتمي إلى أنبياء آخرين في سياق واحد، ومن غير استثناء أو تمييز، وهذا التعميم إن دل على شيء فإنما يدل على أن الجميع على أمة أو كتلة شعبية خاصة متساوون عند الله تعالى، وليس ثمة فارق جوهرى يميز شعباً معيناً على شعبٍ آخر لمجرد تكوينه الشعبي؛ فهناك قانون تعتمد نجاة الجميع عليه ألا وهو الإيمان والعمل الصالح؛ إذ العبرة في ذلك - أي فيما يتصل بنيل الدرجات عند الله تعالى - القيام بصياغة الحياة العملية وممارستها وفق مشيئة الله عز وجل.

إن أتباع أي نبيّ عندما يتشكلون في الزمن المعاصر له، يتم تشكيلهم دائماً على ركائز صلبة من الإيمان والعمل الصالح، فعادةً ما يحدث إذ ذاك أن صوت النبي يعمل على إحداث ثورة عقلية وفكرية في عددٍ قليلٍ أو كثيرٍ من الناس، وبالتالي تستيقظ في

نفوسهم إرادة جديدة، تؤدي بهم إلى القيام بتغيير جذري شامل في حياتهم العملية، بحيث يتخذون من التعاليم الإلهية منهاجاً لمسيرة حياتهم التي كانت قبلئذ تسير على أساس من الأهواء والرغبات الذاتية، إن هؤلاء هم الذين يكونون «أمة النبي» في حقيقة الأمر، وهم الذين يُبشرون بنعيم الآخرة الأبدي !!

غير أن الوضع لا يلبث أن ينقلب في الأجيال التالية، إذ يتحول دين الله بالنسبة للأجيال التالية إلى شيء أشبه ما يكون بتقليد أو رسم قومي، وأما البشائر التي كان قد تم إعلانها سابقاً على أساس الإيمان والعمل الصالح، فهي الأخرى يتغير مفهومها؛ بحيث تُعتبر الآن وكأنها حاصلة بمجرد العلاقة الشعبية أو الانتماء الطائفي، وينتهي بهم الأمر إلى اعتقاد أن طائفتهم التي ينتمون إليها لها علاقة خاصة بالله، وأن الشخص الذي ينتمي إلى تلك الطائفة الخاصة، بغض النظر عن عقائده وأعماله لا بد أن يفوز بالخلاص الأخروي، وأن الجنة لا يستحقها إلا هو وطائفته وحدها، وأما جهنم فإنها هي للطوائف الأخرى .

غير أنه ليس هنالك أي شعب من الشعوب يتمتع بأية علاقة خاصة بالله تعالى، فإن العبرة عند الله إنما هي بنوعية ما يؤمن به الإنسان من فكر وما يأتيه من عمل لا غير، ومصير الإنسان في عالم الآخرة، إنما يتحدد على أساس سلوكه الحقيقي، وليس على أساس الانتماءات الشعبية .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٦٦﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٦٧﴾ وَلَقَدْ عَامَتْهُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٨﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

مِيثَاقِكُمْ: العهد عليكم بالعمل بما في التوراة.

خَاسِيَيْنَ: مُبْعَدِينَ مطرودين صاغرين.

فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا: عقوبة.

إن روايات «الكتاب المقدس» تقول: إنه لما أخذ الله العهد على بني إسرائيل في زمن موسى - عليه الصلاة والسلام - بامثال أوامر الله تعالى كما ينبغي، قد رفع الله فوقهم الجبل إذ ذاك، وخاطبهم قائلاً: «إما أن تقبلوا التوراة، وإلا فستهلكون جميعاً هنا» (التلمود)، وهكذا الأمر بالنسبة لكل شخص يؤمن بالله، إن الإيمان بالله يعني المرء قد أخذ على نفسه عهداً بأن حياته ومماته ستمضي وفق منهاج الله عز وجل، إن هذا العهد خطير للغاية؛ حيث إنه يتم التعاقد فيه بين طرفين، أحدهما العبد الذي هو في منتهى الضعف والقصور والعجز، وأما الطرف الآخر فهو الله العزيز الذي يملك كل طاقات السماء والأرض، وإن العبد إذا التزم فعلاً بكل مقتضيات هذا العهد، وأحسن الوفاء به، فقد استحق عند الله نعيماً خالداً لا يزول ولا يفنى أبداً، وأما إذا هو أخلف عهده ذلك ورفض الالتزام الفعلي بمقتضياته، فقد عرّض نفسه لمصير غاية في الخطورة؛ وذلك أن يقذف به الله في نار جهنم، ولا يجد إلى الخروج منها من سبيل.

إن المشاعر والكيفيات التي طرأت على قوم موسى - عليه الصلاة والسلام - في أثناء أخذهم الميثاق الإيماني، هي نفسها مطلوبة من كل عبد مؤمن، فينبغي لكل من يربط نفسه بالله برباط الإيمان، أن يهتز كيانه وترتعد فرائضه، استشعاراً لمدى خطورة الأمر، وكأنه لئن همّ بنقص هذا العهد «فإن الأرض تنشق من تحته، والسموات بتفطرن من فوقه».

إن من ظواهر الضلال الذي يقع فيه شعب مُنح شريعة من عند الله تعالى، أن تكون تصرفاته العملية في الحياة على النقيض تماماً مما تقتضيه شريعة الله، ومن جهة أخرى يعمد إلى تبرير موقفه غير الشرعي ذلك متذرعاً بصنوف من التأويلات، زاعماً أنه محافظ

تمام المحافظة على أحكام الله تعالى ، ولقد أمر اليهود بأن يُحْصُوا يوم السبت بالذكر والعبادة والصيام، وألا يعملوا فيه شيئاً يتصل بالشئون الدنيوية، ولكنهم لم يراعوا هذه الحرمة الإلهية حق رعايتها، حيث أخذوا يتشاغلون بأموالهم الدنيوية في يوم السبت أيضاً كشأنهم في غيره من الأيام، ثم إنهم - مع ذلك - ذأبوا على اختلاق أنواع من التبريرات والتأويلات اللفظية لكي يخدعوا الناس بأن الذي يفعلونه ليس خلافاً للشرعة، بل هو عين ما أمر الله به إياهم ، ولقد تسبب تمردهم هذا في إثارة غضب الله لدرجة أنهم مُسخوا إلى قردة خاسئين .

والجدير بالذكر أنه كلما انحرف الإنسان عن الشريعة وأحكامها، انحطَّ إلى مستوى البهائم التي هي غير ملزمة بأي ضابطٍ أو قانونٍ أخلاقي ، ولذا فليحذر الذين تسول لهم أنفسهم هذا النوع من التلاعب بالشرعة الإلهية؛ أن يأخذهم القانون الإلهي ، فينزل بهم إلى ذلك الدرك من الذل الحيواني المهين ، الذي وقع فيه اليهود من قبل .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْهَبُوا بِقَرَّةٍ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا ۗ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ ۗ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ ۗ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا لَوْثُهَا ۗ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْثُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا آدَعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَنَا مَا هِيَ ۗ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلِّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا ۗ قَالُوا الْكَيْنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۗ فَذَنَّبُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأْتُمْ فِيهَا ۗ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فُكِّلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۗ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ ۗ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ۞

هُزُؤًا: سخرية .

لَا فَاْرِضْ وَلَا يَكْرُ: لَا مُسِنَّة وَلَا فَتِيَّة.

عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ: نصف (( وسط )) بين السنين .

فَاقِعٌ لَوْنُهَا: شديدة الصفرة .

لَا ذُلُولٌ: ليست هينة سهلة الانقياد .

تُثِيرُ الْأَرْضَ: تقلب الأرض للزراعة .

الْحَرَثُ: الزرع أو الأرض المهيأة له .

مُسَلَّمَةٌ: مُبْرَأَةٌ مِنَ الْعُيُوبِ.

لَا شِيَّةٌ: لا لون فيها غير الصفرة الفاقعة .

فَإِذَا رَأْتُمْ فِيهَا: فتدافعتم وتحاصمتم فيها .

في زمن سيدنا موسى - عليه الصلاة والسلام - حدث أن قُتل رجل من بني إسرائيل، ووقع اختلاف شديد في: من هو القاتل؟ فأمرهم الله تعالى بواسطة النبي أن يذبحوا بقرة، ويضربوا القاتل ببعض أعضائها، فسيعود القاتل إلى الحياة بإذن الله، ويدل على من قتله، وقد أُتخذ بشأن حادث القتل الأنف الذكر بهذا الأسلوب الخارق للعادة لأغراض عديدة، منها:

أولاً: لقد تأثر بنو إسرائيل، أثناء إقامتهم الطويلة في مصر، بالحضارة المصرية وتقاليدها الوثنية تأثراً بالغاً، وبما أن المصريين كانوا يعبدون البقرة، فما لبث بنو إسرائيل أن تسرب إليهم أيضاً الاعتقاد بقداسة البقرة، وعندما وقع الحادث المتقدم ذكره، أراد الله تعالى أن يكون وسيلة لتحطيم ذلك الاعتقاد المستقر في أذهانهم عن قداسة البقرة، ومن هنا فقد أُتخذ من ذبح البقرة وسيلة لإطلاعهم على شخصية القاتل المتنازع فيها .

ثانياً: وبما أن من تصرفات بني إسرائيل الخاطئة الممقوتة، أنهم قد جعلوا من دين

الله السهل البسيط ديناً شاقاً وعسيراً بسبب خوضهم في الأمور الجانبية، وانغماسهم في التهميشات الفقهية، فقد تم تلقينهم درساً بالغ الأهمية، وهو أنه إذا ما جاء حكم من عند الله تعالى، فيجب عليكم أن تبادروا بالعمل الفوري به؛ حاملين إياه على أبسط محامله، وإياكم أن تتبعوا في هذا الشأن سبيل التعمق والتنقير والتفصيلات الجدلية التي أعفاكم الله منها .

ثالثاً: وعن طريق هذا الحادث تم إشعار بني إسرائيل بأن الحياة الثانية هي حياة ممكنة؛ شأنها شأن الحياة الأولى، وأن الله سيحيي كل إنسان بعد موته، وسيبعثه ثانياً في عالم جديد.

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

يَتَفَجَّرُ: يتفتح بسعة وكثرة .

يَشَّقَّقُ: يتصدع بطول أو عرض .

إن الذين يتخذون من إثارة المناقشات اللفظية حول الحكم الإلهي دينهم، ومن ابتغاء التأويلات البعيدة الفاسدة دأبهم؛ يتدرجون، يوماً بعد يوم؛ إلى الإصابة بمرض الجمود وبلادة الإحساس، فتقسو قلوبهم وتتحجر شيئاً فشيئاً، إن اسم الله هو اسم لذاتٍ أعظم وأسمى في الوجود، وإن المرء إذا كان في داخله معموراً بالإيمان الحي، فإن فؤاده يرتجف عند ذكر الله، ويجد نفسه أميل إلى الصمت والسكوت غير أن القلوب حين تُصاب بالجمود والبلادة الحسية؛ فإن أحاديث الله هي الأخرى تصبح مشار المجادلات العقيمة والتأويلات الباطلة؛ كما هو الشأن في الكلام الإنساني العادي، إن عملاً كهذا لا يزيد الخائضين فيه إلا قسوةً وتحجراً وبلادة إحساس، حتى تصير قلوبهم

وكانها الحجارة أو أشد منها قسوة وصلابةً، وبالتالي فلا يعود ذكر الله واستحضاره يذيب قلوبهم، ولا هو يُلهب مشاعرهم وأحاسيسهم، ولا هو يتسبب في إيجاد رجفةٍ وارتعادٍ في أرواحهم ونفوسهم، لقد ورد ذكر الحجارة هنا على سبيل التمثيل .

وقد تناولت هذه الآية الإشارة إلى ثلاثة أمثلة، من تلك التي وضعها الله تعالى في عالم الأحجار :

١- فمما يُشاهد على سطوح الجبال المرتفعة، أن تُوجد عيون المياه، وهي تسرح في داخل الأحجار والصخور، والتي تتخذ نهائياً، بعد أن يلتقي بعضها ببعض، شكل الجداول والأنهار، إنها صورة تمثيلية ترمز إلى ذلك الإنسان الذي أخذت الخشية الإلهية من قلبه كل مأخذٍ، ثم هي لا تلبث أن تأخذ في التدفق من عينيه في صورة الدموع .

٢- والمثال الثاني يصور الحجارة التي تبدو للوهلة الأولى، وكأنها ليست سوى صخرة غليظة صماء، غير أننا عندما نقوم بشقها وتحطيمها، يكشف ذلك عن ذخائر كبيرة للمياه، كانت متوافرةً مناسبةً تحتها، وهذه الصورة التمثيلية ترمز إلى الإنسان الذي يبدو، في بادئ الأمر، وكأنه بعيد عن الله مقطوع الصلة به، ثم يمر عليه حادث من الحوادث، فيهزّ روحه ووجدانه هزاً عنيفاً، وإذا به يسعى نحو الله ربه في سيلٍ من الدموع .

٣- وثالث الأمثلة في عالم الأحجار ما يُسمى بالهبوط أو الانزلاق الأرضي، والذي يتمثل في انزلاق الجنادل والصخور من أعالي الجبال إلى حضيض الأرض .. وتلك صورة تمثيلية ترمز إلى ذلك الإنسان الذي اتخذ موقفاً غير صحيح نحو قضيةٍ ثارت بينه وبين إنسانٍ آخر، ثم عُرض عليه بعد ذلك حكم الله بشأن تلك القضية؛ فما لبث، بعد أن اتضح له الحكم الإلهي، أن تهدم وانهار، إنه لم يكن يرضى بأن يخضع ويستسلم أمام الإنسان، غير أن قضية الإنسان عندما صارت قضية الله؛ لم يتمالك هو نفسه من أن يخزّ أمامه بكل تواضع وخضوع .

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ  
 يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا  
 خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ  
 رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ أُولَٰئِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

يُحَرِّفُونَهُ: يبدلونه، أو يؤولونه بالباطل.

خَلَا بَعْضُهُمْ: مضى إليه، أو انفرد معه.

فَتَحَ اللَّهُ: حكم به أو قصه عليكم.

إن من جملة العوامل التي يرجع إليها ما سجله التاريخ من مبادرة أهالي المدينة،  
 بمثل تلك السرعة، في معرفة رسول الله ﷺ عقب ظهوره، والتصديق الفوري به؛ أنهم  
 كثيراً ما كانوا يسمعون من جيرانهم اليهود أن نبياً - وهو آخر الأنبياء - مبعوث قد أظلم  
 زمانه، وبناءً على ذلك، فقد كان نبأ مبعث النبي الخاتم، بالنسبة لهم - أي بالنسبة لأهالي  
 المدينة - نبأ مألوفاً غير داعٍ إلى أية دهشة أو استغراب، ولقد كان مسلمو المدينة هؤلاء  
 - بطبيعة الحال - على جانبٍ كبيرٍ من حسن الظن والرجاء بأن اليهود أنفسهم سوف  
 يبادرون باتباع الرسول والانضواء تحت لوائه؛ نظراً لأن أحاديثهم هي التي كانت  
 الباعث الأولى على ترغيبهم في اعتناق الإسلام.. ومن هنا فقد كانوا يتقدمون، بحماسٍ  
 اندفاعٍ بالغين، لإبلاغ رسالة الإسلام إلى هؤلاء اليهود، ودعوتهم لأن يؤمنوا برسول  
 الله ﷺ وينضموا إلى طائفة أتباعه وأنصاره.

ولكن المسلمين كانوا يصدمون نفسياً حين يرون اليهود على العكس مما قد عقده  
 عليهم من آمال، فأدى ذلك إلى نتيجة خطيرة أخرى، وهي أن الذين كانوا يضمرون  
 الحقد والعناد والمكابرة ضد شخصية رسول الإسلام ﷺ أخذوا عندئذٍ يشبطون المسلمين  
 قائلين: إن أمر هذا النبي ليس من التأكد والثوق إلى هذا المبلغ الذي قد زعمتموه؛ إذ

لو كان ذلك كذلك، لسبقكم علماء اليهود وأخبارهم إلى التصديق به، فإنهم أكثر منكم علماً ومعرفةً بالكتب السماوية وأسرارها.

غير أن قبول شيء ما؛ لا يتوقف أبداً على مجرد معرفة الرجل بذلك الشيء، بل يجب - فوق ذلك - أن يكون الرجل جاداً تمام الجدية بالنسبة لذلك الشيء، أما اليهود فكان الأمر قد انتهى بهم إلى أن أدخلوا عدداً لا يُحصى من التغييرات فيما عندهم من الأسفار والكتب التي كانوا يعتقدون بأنها كتب سماوية، فكلما وجدوا في ثنايا كتبهم المقدسة، شيئاً يخالف أهواءهم، تأولوه على غير تأويله، أو حرفوه عن مواضعه، حتى يتفق وما تهواه أنفسهم، إنهم كانوا قد استتبعوا دينهم لمصالحهم الدنيوية الهينة، والذين تكون أعمالهم وتصرفاتهم من هذا النوع من انعدام الجدية، تُرى هل يمكن أن يعترف هؤلاء بحق يظهر خارج ذواتهم؟!

إنه لو أراد المرء أن يتخذ موقف الإنكار بإزاء شيء ما، مهما كان ذلك الشيء مبنياً على الحق، لأمكنه أن يعتسف تأويلاً يبرر موقفه السلبي بأي حالٍ من الأحوال، وعندما يبرز هذا التأويل في شكله النهائي يسمى «التحريف»، والنتيجة المحتومة التي ينكشف عنها مثل هذا الموقف هي أن يفقد المرء تلقائياً إحساسه بمدى خطورة الأمر المتصل بالله، بحيث إنه قد يستمع إلى بعض أحكام الله تعالى، ولكنه لا يزال مطمئناً بما كان عليه سابقاً، متكئاً على أي تأويلٍ لفظيٍ يجعل شأنه بعيداً عن ذلك الحكم الإلهي، أي إنه يتمتع بصفة استثنائية، وقد يكون مؤمناً بالله تعالى، غير أن قسوته القلبية تجعله يتجاسر على ارتكاب أنواع من الأمور العظام لا يتجاسر على ارتكابها إلا الذي لا يؤمن بالله مطلقاً، والذي لا يعلم أنه الله بصير بكل أفعاله وتصرفاته، وسميع لسائر أقواله وأحاديثه.

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانٍ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٧﴾ قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ رَأْيَ بَعْزِ تَمَنَّا

قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٦﴾ وَقَالُوا لَنْ  
تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ تُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ  
تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ  
فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٩﴾

أُمِّيُونَ: جهلة بكتابهم (التوراة).

فَوَيْلٌ: هلكة، أو حسرة، أو شدة عذاب، أو واد عميق في جهنم.

كَسَبَ سَيِّئَةً: هي هنا الكفر.

وَأَحَاطَتْ بِهِ: أحدقت به واستولت عليه.

أريد «بالأمانى» ما كان قد وضعه أحبار اليهود من القصص والأساطير الخرافية  
حول دينهم، والتي كانت؛ بسبب بهرجتها الظاهرية وبريقها الخادع، قد حظيت بقبول  
كبير بين عامة الناس. وقد رُوي عن ابن عباس بهذا الخصوص، أن هذه «الأمانى»:  
«أكاذيب مختلقة، سمعوها من علماءهم، فنقلوها على التقليد» (البحر المحيط)،  
وكانت هذه الأقاصيص تنطوي على مزاعم وأقوال، عُزيت كذباً إلى شيوخهم  
وأنبيائهم السابقين، بحيث تزعم أن نار الجحيم ليست لليهود بل هي لمن دونهم من  
الأمم والشعوب، وأن بني إسرائيل هم أبناء الله وأجباؤه، وأن الدين الذي يؤمنون به  
هو دين يتمتع بخصائص ومواصفات طلسمية بحيث إن شيئاً عادياً بسيطاً منه يكفي  
لتخليص المرء من نار جهنم وإيصاله إلى جنات النعيم.

وبالطبع فقد كانت هذه الوصفات المقدسة لإحراز النجاة الرخيصة تمتلك قوة  
جذب كبيرة للعوام؛ بحيث إنهم كانوا يجدون فيها تصديقاً وسنداً لآمالهم الفارغة التي  
كانوا يعيشون على أساس منها، وتتخلص تلك الآمال في أن الوصول إلى الجنة، لا

يستلزم بالضرورة أن يضعوا حداً لحياتهم المنحرفة والمنطلقة من كل التبعات والمسئوليات؛ إذ إن البركات التي تحصل لهم عن طريق الرقى والعزائم هي وحدها كفيلة بأن تقودهم إلى الجنة دون عمل ولا حساب، ولهذا فإن علماء اليهود الذين كانوا يتغنّون بأمثال هذه الأقاصيص إذ ذاك تلقاهم الناس بغاية من الحفاوة والاحترام والتقدير، فإن عملهم على التخفيف من شدة أمر الآخرة صار لهم بمثابة سُلّم إلى تجارة دنيوية عظيمة الشأن، حيث التفّ حولهم حشو من الناس كبير؛ وبدأت تنهال عليهم الهبات والندور من كل صوب، إنهم كانوا يدّلون الناس مجاناً على أقرب وأيسر الطرق المؤدية إلى الجنة، فعوّضهم الناس عن ذلك، بأن وفروا لهم مجاناً كذلك، كل ما أمكن توفيره من عروض الدنيا ومتعها من عند أنفسهم.

وذلك هو الداء العضال الذي ما برح يصيب الأمم الأمانة على الكتاب الإلهي في كل العصور والأزمان، إن الذين يمارسون حياتهم على أساس هذا النوع من الأحلام اللذيذة، والذين يظنون أن ما ألقى عليهم من الأعباء والمسئوليات، إنما ينحصر في نطاق بضعة أعمال ومراسم شكلية وكفى، والذين تراودهم هذه الأمنية الحاملة بأن جميع حقوقهم صارت محفوظة عند الله إلى أبد الأبدين؛ فإن أشق ما يكون على أمثال هؤلاء القوم دائماً، هو الدعوة إلى الدين الخالص، إذ هم يرون ذلك مما يؤرقهم ويُنغص عليهم مذاق العيش ولذته، ولأن ذلك - ولا ريب - يُرغمهم على المشول بين يدي حقائق الحياة وهي سافرة مكشوفة لا يحول دونها حائل.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهََ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (٢٤)

أول ما يجب على الإنسان نحو الله أن يأخذ نفسه بعبادة الله تعالى وحده، ولا يشرك به أحداً، والواجب الثاني هو الالتزام بحسن المعاملة مع عباد الله أجمعين، ويتبدى هذا

السلوك الحسن أول الأمر ، بإحسان الإنسان إلى أبويه هو، ثم ينتقل من هناك إلى الأقارب والجيران، حتى ينتهي إلى كل إنسان يصادفه ويتعامل معه في مختلف ميادين الحياة العملية، وكلما ثارت قضية من القضايا في الحياة بين إنسانٍ وآخر ؛ تحتم اتخاذ موقف سلوكي واحد، ألا وهو الاحتكام إلى العدل والنصح له بالمعروف ، وفي هذا الشأن يتركز الاختبار الأصلي للإنسان على « اليتامى والمساكين »، أو بلفظٍ آخر على «الضعفاء» بصفةٍ خاصةٍ، إذ إن قوة القوي هي ذاتها كفيلة بدفع الناس إلى التصرف الجميل معه، غير أن الضعيف لا يجتمع بوجوده دافع إضافي كهذا ، ما من شأنه أن يبعث الآخرين على الإحسان إليه، ولذا فإن الموقف الأكبر الذي يطالب الإنسان فيه بالتزام السلوك الحسن هو الموقف الذي يتم التعامل فيه مع الضعفاء !!

وذلك لأن التعامل مع الضعفاء لا يكون إلا لابتغاء وجه الله ، لا لشيءٍ آخر ، وفي بعض الظروف تنطفئ عاطفة الإحسان إلى الضعفاء لعوامل شتى منها : أن الرجل الضعيف هو اليد السفلى الآخذة ، وهذا قد يشعر المعطي بالاستعلاء بالمقارنة إلى الفرد الآخذ ، وهذه النفسية قد تحول دون مراعاة كرامة الضعيف الشخصية ، كما أن الرجل الضعيف ينتظر منه أن يُجامل في السؤال، أو يُبالغ في إظهار حاجته على نحو ما ، وإلا عدَّ غير جدير بالعطاء إلى غير ذلك من شتى صور الإيذاء النفسي أو الفعلي خلال التعامل معه.

ولهذه العوامل كلها جعل الله قول المعروف خلاصة الأعمال وجوهرها على الإطلاق، وربّ كلمة ودّ حقيقية أفضل من كثير من الأشياء بالنسبة للإنسان، فالمرء يلقي الخطاب الرنانة بكل سخاءٍ، غير أنه أبخل ما يكون بالنطق بكلمةٍ جميلةٍ واحدةٍ؛ إذا كانت تلك الكلمة تعني عملياً أن يعترف بفضل إنسانٍ آخر سواه ، ولا سيما إذا كان المقابل له ليس على جانبٍ من القوة والعزة، فهو عندئذٍ يرى نفسه في غير حاجةٍ حتى إلى استخدام كلماتٍ مهذبةٍ شريفةٍ في الحديث معه، أما إذا أساء إليه أحد إساءة ما، فهو إذن لا يرى بأساً في استثنائه من كل حكمٍ إلهيٍّ بشأن رعاية مبدأ العدل في المعاملات

البشرية جمعاء .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿١٥١﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَتُّوْلَاءٌ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْتَدُوهُمْ وَهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا تَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ: تتعاونون عليهم .

أَسَارَى: مأسورين .

تَفَادَوْهُمْ: تخرجوهم من الأسر .

خِزْيٌ: هوان وفضيحة وعقوبة .

كانت هناك ثلاث قبائل من اليهود تقطن نواحي يثرب (المدينة القديمة)؛ وهي : بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، وكان هؤلاء جميعاً يؤمنون بالشريعة الموسوية، غير أن التعصبات الجاهلية أدت بهم إلى أن فرقوا دينهم فصاروا شيعاً وأحزاباً متناقضة، ومن أجل الحفاظ على مصالحهم السياسية كانوا قد انضموا إلى جيرانهم المشركين - قبيلتي الأوس والخزرج - بالمدينة إذ ذاك ، فانضوى بنو النضير وبنو قريظة تحت لواء الأوس، أما بنو قينقاع فكانوا حلفاء الخزرج ، ونتيجة انقسامهم على هذا النحو، كثيراً ما كانت تنشعب بينهم حروب دامية، ومعاركة بُعثت، هي واحدة من تلك الحروب التي وقعت قبل الهجرة النبوية بخمسة أعوام ، وقد كان اليهود في هذه الحروب يتخذون جبهتين، بانحياز كل فريق منهم إلى حلفائهم من المشركين؛ وبالتالي

يقتل يهود إحدى الجبهتين أبناء دينهم من الجبهة المعارضة، ويُخرجونهم من بيوتهم، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها يأخذون في مناشدة إخوانهم في الدين، يطلبون منهم التبرعات والمعونات المالية لكي يفادوهم من أسر القبائل الوثنية، إنهم كانوا يخالفون الحكم الإلهي فيما يتصل برعاية حرمة النفس وحرمة المال، ثم يتظاهرون بهذا النوع من التعاطف الكاذب مع الذين صاروا ضحايا سياستهم العدوانية الظالمة، لكي يزعموا أنهم على جانب من التدين العظيم.

وبما أن أحكام الشريعة الأصلية والأساسية تحتم على المرء أن يتخلى عن الحياة الجاهلية، كما أنها لا تتفق مع ما تميل إليه نفسه من الأهواء والشهوات، وأنها أيضاً تضع حداً لسياسته العملية التي تقوم على المنافع الدنيوية وحدها؛ من أجل ذلك كله لا يلقي المرء إلى هذه الأحكام بالاً، غير أنه ربما يتظاهر بإقامة بعض الطقوس والمراسم الشكلية العادية علي مرأى ومسمع من الناس، لكيما يزعم أنه محافظ على دين الله متمسك بأهدابه.

إن مثل هذا الاجترار على الدين وإهمال مراقبة الله والجانب الأخروي، يجعل الإنسان جديراً بالغضب الإلهي وليس بالإنعام الإلهي.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٦٢﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٣﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦٤﴾ بِئْسَمَا اسْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى

غَضِبَ وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٠١﴾

وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ : أتبعنا على أثره الرسل على منهاجه .

بِرُوحِ الْقُدُسِ : بالروح المطهر جبريل عليه السلام .

قُلُوبُنَا غُلْفٌ : عليها أغشية وأغطية خلقية .

يَسْتَفْتِحُونَ : يستنصرون ببعثته ﷺ .

اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ : باعوا به أنفسهم .

بَغْيًا : حسداً .

فَبَاءُوا بِغَضَبٍ : فرجعوا به مستحقين له .

التوراة هي كتاب الله الذي نزل على اليهود ، غير أن التوراة قد انتهى أمرها ، بمضي الزمن إلى أن صارت عندهم بمثابة وسيلة للتبرك أو مفخرة شعبية فحسب ، ومع أن اليهود ما زالوا متمسكين بها كرمز للنجاة والمجد القومي ، إلا أنهم قد عزلوها عن مركزها الأصلي ؛ وهو الذي يتمثل في أنها « كتاب الإرشاد والهداية العملية في الحياة » ، ولقد انبعث فيهم الكثير من الأنبياء ، بين فترة وأخرى بعد موسى عليه السلام مثل النبي يوشع ، والنبي داود ، والنبي زكريا ، والنبي يحيى . . إلخ عليهم السلام حتى ختم أنبياءهم بعيسى ابن مريم عليه السلام ، وإنما جاء هؤلاء الأنبياء جميعاً لأداء مهمة واحدة ؛ هي أن ينصحوا اليهود بأن يمارسوا حياتهم العملية على أساس تعاليم التوراة ، ولكن بالرغم من إيمانهم بقدسية التوراة لم يستطيعوا القيام بتكالييفها أو الحفاظ على نصوصها ، وراحوا يكذبون أنبياء الله ويكفرون بهم ، بل كانوا يقتلونهم آخر الأمر ، وكان السبب في ذلك أن الحياة التي كانوا يعيشونها باسم التوراة ، كانت في حقيقة أمرها ، حياةً مبنيةً على مجرد شهوات النفس ومنافع الدنيا ، حتى وإن كانوا قد ألصقوا عليها رقعةً تحمل عنوان كتاب الله ، ومن هنا فإن أنبياء الله عندما كانوا يقومون فيهم بمهمة الدعوة إلى الحق النقي

الخالص؛ كان يخيل إليهم أن هذه الدعوة تعمل على إلغاء اعتبارهم الديني، وبالتالي يستيقظ في نفوسهم الكبر والغرور، مما يجعلهم يتصدون للقضاء على وجود الأنبياء أنفسهم، ناهيك عن تصديقهم والاستجابة لدعوتهم.

وقد وقف اليهود في جزيرة العرب هذا الموقف من رسول الله ﷺ، فبناءً على ما ورد في كتبهم عن صفة النبي الخاتم، كثيراً ما كانوا يقولون للناس إنه إذا بُعث (( ذلك النبي )) انصوبوا تحت لوائه، وأحرزوا الانتصار على من يعاديه من الكفار والمشركين إلا أن حديثهم هذا لم يكن إلا خطاباً كاذباً كانوا يرددونه لكي يزعموا أنهم الأمناء على الدين ولذلك فعندما ظهر (( ذلك النبي )) انكشف النقاب عن حقيقة حالهم؛ بحيث استبدت الجاهلية بهم وحالت دون اعترافهم بصدق نبي بُعث في غير شعبهم، وبما أنهم ظلوا عاجزين عن إبطال الأدلة الواضحة التي كانت ترد في القرآن لتأييد صدق النبي - عليه الصلاة والسلام - بدأوا يقولون: إن قلوبنا في أكنةٍ أي: إننا لن نترك أبداً ذلك الدين الذي توارثناه عن آبائنا متأثرين في ذلك بما يعرض محمد علينا من زخرف القول وطلاوة البيان .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَبِكَفْرُوتِ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ \* وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ - وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٦﴾ \* وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ \* وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ \*

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ  
 يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْحَزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا  
 يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ: جعلتموه إلهاً معبوداً .

لَوْ يُعَمَّرُ: لو يطول عمره .

إن عدم استعداد اليهود لقبول دعوة القرآن، واتخاذهم موقف الرفض والعناد نحوها، يرتبط بإحساسهم أنهم ما زالوا على الحق كما كانوا أيام موسى عليه السلام وأنهم ينتمون إلى أكبر جماعة بشرية ظهر فيها دعاة الحق، أي بنو إسرائيل، غير أن ذلك لم يكن في جوهره إلا الولاء الطائفي الذي كانوا قد اعتبروه - خطأ - مرادفاً للولاء للحق والتمسك به إنهم كانوا قد أحلّوا «الحق الطائفي» محل «الحق الخالص»، ولذا فعندما ظهر الحق في صورته النقية الخالصة من كل شوب لم يبادروا إليه، ولم يتلقوه بالقبول ولو كان هدفهم المنشود هو الحق الخالص، لما تعذر عليهم أن يدركوا أن نزول القرآن هو حادث قد تحقق طبقاً لنبوءات التوراة نفسها التي هي كتابهم المقدس، وأنه بعد تمام نزول القرآن فإن القرآن وحده هو «الكتاب الحق» وليس مذهبهم الطائفي .

إن قضيتهم ليست في جوهرها قضية الولاء للحق، والدليل على ذلك هو ما نجد في تاريخهم أنفسهم أنهم قتلوا الأنبياء المبعوثين في طائفتهم بالذات؛ مثل يحيى عليه السلام، ولم يكن ذلك إلا لأنه تناول حياتهم بالنقد والتوجيه، ولأنهم «كانوا يشهدون عليهم؛ لكي يعودوا بهم إلى الله ربهم» (سفر نحميا)، يضاف إلى ذلك أن ما أظهره الله على يد موسى عليه السلام من المعجزات والخوارق لم يُبق أي مجالٍ للشك والارتياب في نبوته، ولكن في أثناء فترة إقامته بجبل الطور التي استغرقت أربعين يوماً ما لبثوا أن اتخذوا العجل معبوداً لهم؛ إذ لم يعد نفوذه الشخصي مائلاً أمامهم، وقد رُفِع فوق رؤوسهم الجبل، ولكن بالرغم من ذلك لم يُقرّوا بالعهد إلا إقراراً لسانياً مؤقتاً، ولمجرد النجاة بأنفسهم من

الهلاك، وقد ظلت حياة أكثرهم بعد ذلك تسير على خط المعصية والفجور كما كانت تسير من قبل، ولو أنهم كانوا عبدة لله ومحبين إياه حقاً، لاتجهت أنظارهم واهتماماتهم كلها نحو دنيا الله التي تأتي بعد الموت، بينما الواقع أنهم غارقون في حب هذه الدنيا الحالية أكثر من كل شيء.

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

نَبَذَهُ: طرحه ونقضه.

لقد أصاب اليهود في الزمن القديم عقوبات شديدة قاسية، مرة بعد أخرى، نتيجة لبغيهم المستمر، وطبقاً لما جرت عليه سنة الله. فقد كان يتم إنذارهم مسبقاً بكل عقوبة نازلة، وكان الملك جبريل هو الذي يتوسط بين الله وأنبيائه لنقل هذا الخبر، ثم يقوم الأنبياء بإعلام شعوبهم بذلك، والدرس الجوهري الذي يكمن في مثل هذه الوقائع هو أنه يجب على المرء أن يحترز من معصية الله أشد احتراز؛ حتى لا يحل عليه العذاب الإلهي، غير أن اليهود لم يستطيعوا استلهاهم أي درس كهذا من تلك الوقائع، وبدلاً من ذلك أخذوا يقولون: إن الملك جبريل هو عدونا؛ فهو دائماً ينزل بأوامر وأحكام ضدنا، ولما أعلن رسول الله ﷺ أن الله تعالى قد أوحى إليه بواسطة جبريل، بدأ اليهود يقولون: إن جبريل هو عدونا القديم، وهذا هو السبب في أنه أوصل النبوة، (التي لا يستحقها إلا الشعب الإسرائيلي وحده في رأيهم) إلى رجل من قوم آخرين غيرنا، والحق أنه

يتشاغل بمثل هذا الكلام الفارغ إلا الذين يمارسون حياتهم على أساس من الفسق والانفلات ، وهكذا كان شأن اليهود الذين كانوا يعيشون في مستوى عبادة النفس، والانسحاق وراء الشهوات، والتقليد الأعمى للأباء، والعصبيات العرقية والشعبية، وفي الوقت نفسه كانوا يتظاهرون بإقامة بعض طقوس الدين ومراسمه الشكلية، لكي يزعموا أنهم محافظون على الدين الإلهي ولم ينحرفوا عنه قيد شعرة .

إن الذين يتورطون في مثل هذا التدوين الكاذب، تكون الدعوة إلى الدين الحق الخالص مبعث الاستياء بالنسبة إليهم، إذ إن دعوة كهذه تبدو لهم وكأنها تحرمهم من سيادتهم ، ومن هنا يثور نائثرهم، ونتيجة لهذه الثورة يتكلمون بكلام لا يكون وراءه أي رصيد من المعنى .

ومما هو معلوم بالبدهة أن نزول الملائكة، وبعثة الرسل والأنبياء، كل ذلك إنما يحصل وفق المشيئة الإلهية، ولما كانت هناك دلائل صريحة تثبت أن الشيء الذي نزل على النبي العربي ﷺ هو الشيء نفسه الذي كان قد نزل على إبراهيم، وموسى، وعيسى - عليهم السلام - وأنه مطابق كل المطابقة لما ورد في الصحف السماوية السابقة من بشائر ونبوءات؛ فإن ذلك برهان قاطع على أنه من عند الله تعالى، فضلاً عن ميثات البراهين الأخرى.

﴿ وَاتَّبِعُوا مَا نَتَلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلِكٍ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَرُوتَ وَمَرُوتَ ۖ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۖ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۖ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٦٦﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾

تَتَلُّو الشَّيَاطِينُ: تقرأ . أو تكذب من السحر .

نَحْنُ فِتْنَةٌ: ابتلاء واختبار من الله .

خَلَاقٍ: نصيب من الخير، أو قدر .

إن ظاهرة الفساد والانحراف التي تصيب طائفةً أمةً على الكتاب السماوي، كانت ولا تزال من نوع واحدٍ على مر الزمن ألا وهو: «أن يُبحث عن سر النجاة الأخروية؛ التي يدور أمرها كله حول العمل الصالح وحده، في البطالة وترك العمل». إن كلام الله نداء للعمل، غير أن أمة ما، إذا مُنيت بالانحطاط والزوال، فلا يلبث أفرادها أن يعدوا تقييد «الكلام المقدس» كتابةً، أو ترديده ترديداً لسانياً محضاً، وَصَفَةً غَامِضَةً مكتنفةً بالأسرار يمكن بها الحصول على البركات بجميع أنواعها، وتلك هي التربة النفسية التي ينشأ ويترععرع فيها السحر والكهانة والعمليات الروحية المختلفة؛ لأن الذين يريدون أن يدخلوا الجنة عن طريق أشياء كالطلاسم يأخذون في إحراز الدنيا هي الأخرى عن طريق الطلاسم والتعاويد، كما أن المتشبهين بالاعتقاد في الأولياء والصالحين حاسبين إياه وسيلةً للنجاة، سيتوسلون بالأرواح لحل مشكلاتهم الدنيوية، والمؤمنين بالتأثير السحري الغامض لصنوف الوظائف يقومون برسم خططٍ وبرامج

البعث الديني من خلال الشعوذة السياسية.

وما إن أصيب اليهود بالانحطاط، وبلغوا من البطالة وترك العمل، ومن الإيمان بالخرافات هذا المبلغ، حتى ظهر بينهم أناس احترفوا السحر والكهانة، ولكي تروج بضاعتهم وتنفق سوقهم لجأ هؤلاء الظلمة الخبثاء إلى أن نسبوا فنهم ذلك إلى سليمان النبي ﷺ، فقالوا إن القدرة غير العادية التي كان سليمان يسخر بها الشيطانين والرياح إنما كانت حقيقة ثمرة علمه بفنون السحر؛ وإنما استطعنا العثور على مكنوزات هذا «العلم السلياني» بواسطة بعض الشياطين، وهكذا فقد نال علم السحر وفن العمليات بعد نسبتها إلى سليمان ﷺ قبولاً وانتشاراً واسعين في اليهود.

ولما كان قوم لوط ﷺ متورطين في رذيلة اللواط؛ جاءتهم الملائكة ابتلاءً في صورة ولدانٍ حسان الوجوه، وامتنحن اليهود في بابل، وأرسل إليهم ملكان في زيِّ الدراويش، اللذين كانا يُعلِّمان هناك فنون العمليات، غير أنها كانا يقولان إنما نحن فننة وامتحن لكم، ولكنهم بالرغم من هذا التنويه المستمر، لم يلبثوا أن تهافتوا على تعلم هذا الفن حتى استخدموه لتحقيق الأغراض والمطالب اللاشرعية.

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا آنظُرْنَا وَاسْمَعُوا<sup>١٤</sup> وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ<sup>١٦</sup> وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ<sup>١٧</sup> وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٨﴾ مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا<sup>١٩</sup> أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢١﴾ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ<sup>٢٢</sup> وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٣﴾

شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ: باعوا به أنفسهم .

لَا تَقُولُوا رَاعِنًا: كلمة سب وتنقيص عند اليهود .

وَقُولُوا انظُرْنَا: انظر إلينا، أو انتظرنا، وتأن علينا .

مَا نُنَسِّخُ مِنْ آيَةٍ: ما نُزِّلَ وَتَرَفَعَ من حكم آية أو التعبد بها .

نُسيهَا: نمحها من القلوب والحوافظ .

وَلِيٍّ: مالك، أو متول لأموالكم .

سَوَاءَ السَّبِيلِ: قصد الطريق ووسطه .

ألف الناس في العادة أن يعاندوا كل رجل اختصه الله بإدراك الحق، وأقامه داعياً إليه، والسبب في ذلك يرجع إلى أن الناس يعدون دعوته مما ينتهي بإلغاء كل ما لهم من يعدون مكانة، وأما بالنسبة لليهود فقد كان سبب المعاندة متوافراً بدرجة أشد ما يكون؛ لأنهم كانوا يعتبرون النبوة حقاً شعيباً لهم، إذ لم يكن هنالك شيء أشد وطأة عليهم من أن يبعث الله رسوله في أي شعب آخر غير الشعب اليهودي، وقد جرت عادة اليهود على أن يقوموا بين حينٍ وآخر بإثارة ألوانٍ من الجدل والمناقشات الدينية حول دعوته ﷺ، حتى يتمكنوا من تشكيك الناس في أن كل ما يعرض عليهم الرسول ﷺ لا يعدو أن يكون مجرد حدسٍ أو ابتكارٍ ذاتيٍّ لأحد الأشخاص، وليس شيئاً نزل من عند الله تعالى، ومن ذلك أن بعض الأحكام القانونية التي وردت في القرآن كانت تختلف عن إصدار أحكام التوراة، فاستناداً إلى ذلك كانوا يقولون: هل يعقل أن يكون الله هو الآخر قد أخطأ في أحكامه فأمر مرةً بحكم، ثم أصدر بعد ذلك في شأن القضية نفسها حكماً آخر مبيناً للحكم الأول؟! ولقد زرع اليهود مثل هذه الشكوك والشبهات ونشروها بين الناس إلى حد أن كثيراً من المسلمين البسطاء أنفسهم بدأوا يسألون النبي ﷺ عنها في حيرة وارتباكٍ .

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان اليهود حين يحضرون مجالس النبي ﷺ، يستخدمون في أثناء مخاطباتهم ألفاظاً تنم عن التنقيص والنيل من عظمة شأنه ﷺ، فمثلاً إذا أرادوا لفت انتباهه ونظره ﷺ إليهم، لم يقولوا: «انظرنا»، وهو تعبير واضح الدلالة على المقصود من دون لبس. بل يقولون بدلاً من ذلك: «راعنا» ومن السهولة أن يُحول هذا اللفظ إلى «راعينا» بمعنى: «من يرعى الماشية لنا»، أو أن يُبدل بـ «راعن» - بحذف الألف من آخر الكلمة - مشتقة من الرعونة التي تعني الحمق.

فمن خلال هذه الآيات تم توجيه المسلمين إلى أمورٍ لا بد من أخذها بعين الاعتبار دائماً وهي:

أ\_ يجب أن تستخدموا في أثناء محادثاتكم ألفاظاً وعباراتٍ صريحةً واضحة الدلالة، فلا يليق بكم أن تستخدموا كلاماً ملتبساً ذا معنيين؛ يمكن أن ينطوي على مفهومٍ شائئٍ محقوتٍ.

ب\_ أن تُصغوا إلى كل ما يُلقى عليكم من حديثٍ بدقةٍ وإمعانٍ، وحاولوا جهدكم أن تفهموه وتقفوا على معانيه.

ج\_ أن الإكثار من السؤال من شأنه أن يضل المرء عن سواء السبيل، ولذا فليكن همكم بما فيه العبرة والموعظة بدلاً من القيل والقال.

د\_ أن تهتموا بصيانة إيمانكم والحفاظ عليه، خشية أن تُحرموا من الإيمان نفسه نتيجة لأي تصرفٍ خاطئٍ من تصرفاتكم.

هـ\_ إياكم أن تحقدوا - أو تحسدوا - على أحدٍ في الدنيا، فبما إذا وجدتم عنده من خيرٍ ليس عندكم، إذ إن ذلك مما حباه الله إياه وفق مشيئته وإرادته المطلقة، وهو تعالى لا يُسأل عما يفعل وهو العليم الحكيم.

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ ﴾

إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٢٦﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا  
لأنفسكم من خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٢٧﴾ وَقَالُوا لَنْ  
يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن  
كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢٨﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا  
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴿

أَمَانِيُّهُمْ: شهواتهم وتمنياتهم الباطلة.

أَسْلَمَ وَجْهَهُ: أخلص نفسه أو قصد عبادته لله.

مع أن صوت القرآن لم يكن صوتاً مألوفاً بالنسبة لكثير من الناس، غير أن عدداً  
كبيراً لا يُستهان به من هؤلاء كانوا لا يزالون يدخلون في دائرته لكونه متسقاً وصدى  
قلوبهم ، ولقد اشتدت وطأة هذا الوضع على اليهود وبات يقض مضاجعهم؛ إذ كان  
ذلك يعني امتداد نفوذ الإسلام وتقدمه نحو الأمام ، مع أنهم كانوا غير مكترثين به لأنه  
- في نظرهم - شيء تافه غير ذي بالٍ ، فما لبثوا أن قاموا باستثارة حماسة المشركين  
وتأليبهم على محاربة الإسلام وأهله، ومن جانب آخر عمدوا إلى دس ألوان من  
الشبهات والمغالطات في صفوف المسلمين الجدد، ليتخلخل اعتقادهم ويسوء ظنهم  
بالقرآن وصاحبه، فیرتدوا عن الإسلام إلى دين آبائهم السابق، وكان طبيعياً أن ينزعج  
المسلمون ويثور غضبهم على صنيع اليهود ذاك ، إلا أن الله تعالى قد منعهم من ذلك ،  
وأمرهم بالإعراض الكلي عن إثارة أية مناقشة مع اليهود ، أو القيام بأي إجراء عنيف  
ضدهم في المرحلة الراهنة ، وإنما ينبغي لهم في هذا الشأن أن يتوكلوا على الله وحده،  
ويفوضوا الأمر كله إليه، وينتظروا حتى يأتي الوقت الذي يُحدث الله فيه تغييراً في  
الظروف والملابسات، فيمكن اتخاذ خطوة حاسمة ضدهم ، وأما في الوقت الحالي  
فيجب عليهم - على المسلمين- أن يصبروا، ويركزوا كل اهتمامهم على إقامة الصلاة  
وإيتاء الزكاة، فإن الصبر يحول دون قيام المرء بتحركاتٍ سلبيةٍ بدافع رد الفعل؛ مما لا

يعود عليه أبدأ إلا بنتائج عكسية، والصلاة تربط المرء بالله تعالى، وإشراك المرء إخوانه الآخرين في ثروته المالية يؤدي إلى إيجاد جو يسود فيه روح الوحدة والتضامن والنصح المتبادل .

ولقد كان اليهود يقولون لحديثي العهد بالإسلام آنذاك: إنكم إذا أبيتم إلا استبدال دين بدين آبائكم فاعتنقوا إذن الديانة اليهودية أو النصرانية ، إذ إن الجنة وقف على اليهود والنصارى الذين ينتمون إلى طائفةٍ ظلت - منذ قديم الزمان - طائفة الأنبياء والرسل ، فقبل رداً على زعمهم هذا : ليس الانتماء إلى أي طائفةٍ من الطوائف مما يجعل أحداً يستحق دخول الجنة ، إن قرار الجنة في حق أحدٍ من الناس إنما يتم تحديده على أساس ما يأتيه من عملٍ ، وليس على أساس الفضيلة الطائفية ، ومعنى الإحسان هو إتيان عملٍ ما على نحوٍ جميلٍ ، وإحسان الإسلام يعني أن يكون استسلام المرء وخضوعه لله .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٣٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۗ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحٰنَهُ ۗ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ كُلُّ لَّهُ قٰنِطُونَ ﴿١٣٣﴾ بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ ۗ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٣٤﴾ ۝ ﴾

خِزْيٌ: ذل وصغار ، وقتل وأسر .

فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ: جهته التي رضيها وأمركم بها.

سُبْحَانَهُ: تنزيها له تعالى عن اتخاذ الولد .

لَهُ قَائِمُونَ: مطيعون منقادون له تعالى .

بَدِيعُ: مبدع ومخترع .

قَضَى أَمْرًا: أراد شيئا ، أو أحكمه أو حتمه .

كُنْ فَيَكُونُ: اخذت فهو يحدث .

اتخذ اليهود من الانتساب إلى الأنبياء والصالحين معياراً للحق، وانطلاقاً من هنا فقد بدا لهم أن أمتهم هي وحدها على الحق، وأما ما عداها من الأمم الأخرى فإنها ليست من الحق في شيء ، وأما النصارى فقد رأوا أن سر تميزهم عن غيرهم في أن الله تعالى قد أرسل إليهم «ابنه الوحيد»، وزعم مشركو مكة أنهم يمتازون بكونهم سدنة بيت الله الحرام ، وهكذا كل طائفة من الطوائف اتخذت لنفسها معياراً مصطنعاً للحق والصدق .

ولأَجْرَمَ أنها عندما كانت تنظر في ضوء هذا المعيار المصطنع، تجد ذاتها على الحق، وتجد الآخرين على الباطل، غير أن واقعهم العملي يُثبت عكس ذلك تماماً، فلقد كانوا طرائق قديماً ، ما إن تسنح الفرصة لفرقة، حتى تصدّ الفرق الأخرى غيرها عن البيت المخصص لعبادة الله ، وهكذا كانت تتسبب في خراب بيوت الله وتعطيلها ، مع أن مكان العبادة هو الموضع الذي يدخله الإنسان وفرائضه ترتعد من هيبة الله وجلاله ، فإن كان هؤلاء ربانيين حقاً، إذن كيف يُتصور أن يقفوا في وجه أي عيد جاء لعبادة الله، أو يتصدوا لإيذائه وإزعاجه إذ كان المحتمل أن يكونوا وجلين خاشعين استشعاراً لعظمة الله وكبريائه؟! فكيف يُحتمل إذن أن يصدر عنهم هذا النوع من البغي والطغيان؟!

وقد قاس هؤلاء الذات الإلهية على الذات البشرية ، فكما أنه من المستحيل أن يوجد

أي إنسان في جهة الشرق والغرب معاً وفي آنٍ واحدٍ، زعموا - بناءً على هذا القياس - أن الله تعالى أيضاً لا بد أن يكون موجوداً في جهةٍ واحدةٍ مخصوصةٍ، ولا شك أن الله تعالى قد حدّد جهةً معينةً لكي يكون التوجه إليها في أثناء عبادته إلا أن ذلك يرتبط بالضرورة التنظيمية للعبادة، وليس لأن الله تعالى يوجد في تلك الجهة المعينة بالذات، وقياساً على البشر كذلك زعموا أن الله ولدأ، على حين أن الذات الإلهية تعالت وتزهت عن مثل هذه الأشياء علواً كبيراً، وإنه ليس للذين يحاولون أن يصبغوا ديانةً مزيفةً مزعومةً بصبغة دين الله على هذا النحو، ليس لهم عند الله شيء سوى الخزي والعذاب الأليم .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٣١﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿٣٢﴾ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ أَهْدَىٰ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

إن عباد الله الذين أرسلهم الله تعالى لإبلاغ دينه للناس، ظلوا يواجهون نوعاً واحداً من رد الفعل على اختلاف العصور، ويتمثل في التساؤل الآتي : « إذا كنتم مندوبين لله حقاً كما زعمتم، فلماذا إذن لا تملكون من خزائن الدنيا شيئاً؟! »، وإنما كان هذا الشك يختلج في صدور ذوي الاتجاهات والنزعات المادية؛ الذين تنحصر كل معاني العظمة عندهم في مظاهر العظمة المادية وحدها، ومن هنا فقد كانوا يريدون لمندوب الله أيضاً أن يكون على أوفر نصيبٍ من هذه العظمة، وإذا رأوا أن حياة الداعية إلى الحق ليست من مظاهر هذه العظمة في شيء، لم يلبشوا أن كذبوه ورفضوا دعوته، إذ إن عقولهم لا

تدرك أن «رجلاً عادياً» يمكن أن يكون هو الشخص الذي وقع عليه اختيار مالك السموات والأرض لإبلاغ رسالته للناس، ومع أن حياة أولئك الأخيار من عباد الله وكلامهم بحيث تتجلى فيها آيات الله تعالى واضحة، وبعبارة أخرى إن «العظمة المعنوية» كانت تتوافر فيهم أبلغ ما يكون، إلا أن مثل هذه الأشياء لم تكن تقع تحت أبصار القوم، ولذلك فلم يكونوا يستعدون للاعتراف بعظمتهم وفخامة شأنهم، وبالرغم من كون الدليل موجوداً هناك في أكمل صورته وأنصعها، لم يكن يتحول إلى جزء من أذهانهم؛ لأنه لم يكن يتوافق مع شاكلتهم النفسية والمزاجية .

وقد كان اليهود والنصارى - في قديم الزمان - ممثلين للديانة السماوية، غير أن الدين، بعد ما أصابه الانحطاط، لم يلبث أن تحول إلى مذهبٍ طائفي، فراحوا يعدون الارتباط الدائم بطائفتهم ديناً، والانفصال عن الطائفة مُروفاً عن الدين، ومجرد الانضمام إلى طائفتهم أو عدم الانضمام إليها صار لديهم معياراً للحق وغير الحق، ولذا فعندما ظهر الدين أمامهم في صورته النقية الخالصة، لم تكذب نزعته المذهبية الطائفية تستطيع قبوله أو استساغته، والحقيقة هي أن الدين الخالص لن يتلقاه بالقبول أبداً إلا الذي كانت فطرته لا تزال تنبض بالحياة، وأما الذين انطفأت جذوة فطرتهم ولم يعد فيها نور، فلا أمل يرجى من هؤلاء، ولا يمكن أن يدخل أي نوع من التغيير أو التعديل في الدين رجاء أن يصبح جديراً بالقبول عند أمثال هؤلاء الناس .

﴿ يٰٓبَنِي إِسْرٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي اٰنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَاِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلٰى الْعٰلَمِينَ ﴿٣١﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزٰٓى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٢﴾ \* وَاِذْ اٰتٰنَا اِبْرٰهِيْمَ رِثَةًۭ بِكَلِمٰتٍ فَاتَّمَّهِنَّ ؕ قَالَ اِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ اِمَامًا ؕ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

العالمين: عالمي زمانكم.

لَا تَجْزِي نَفْسٌ: لا تقضي ولا تؤدي نفس.

عَدْلٌ: فدية.

أَبْتَلِي: اختبر وامتحان.

بِكَلِمَاتٍ: بأوامر وتوابع.

فَأَتَمَّهُنَّ: أداهن الله تعالى على الكمال .

إن اختيار بني إسرائيل - كأمة - إنما كان من أجل الاضطلاع بمهمة جليلة، تتمثل في قيامهم بدعوة جميع شعوب الأرض إلى الله، وإطلاعهم على حقيقة أنهم محاسبون ومسئولون عند مالئهم عن كل عمل يمارسونه في هذه الحياة الدنيا، ولم يزل يُبعث فيهم الأنبياء بين فترة وأخرى لترشيد هذه المهمة وتسديد طريقها، من سيدنا إبراهيم، إلى يعقوب، ويوسف، وموسى، وداوود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى، .. إلخ - عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه - ولكن ما إن أصيب بنو إسرائيل بالانحطاط والزوال في العصور اللاحقة، حتى حملوا هذه «الفضيلة الوظيفية» على أنها «فضيلة عرقية وطائفية»، ففقدوا أهليتهم وجدارتهم .

إن بعثة النبي العربي في السلالة الإسماعيلية كانت - عند بني إسرائيل - إيذاناً بصرف بني إسرائيل عن مركز الفضيلة، إن الذين كانوا من بني إسرائيل ربانيين حقاً، لم يلبثوا أن عرفوا أن الكلام الذي يقدمه النبي العربي إنما هو كلام منزل من عند الله تعالى، وأما الذين كانوا قد أحلوا العصبيات المذهبية الطائفية محل الدين فإنه لم يعد بإمكانهم الاعتراف بوجود أية فضيلة خارج ذواتهم، وقد تم تحذيرهم على لسان النبي العربي أنه في اليوم الآخر لن يكون هناك وزن ولا قيمة إلا للإيمان الحقيقي والعمل الصادق، نعم! قد يحدث في هذه الدنيا أن يأخذ شخص تبعه شخص آخر على عاتقه، وقد تنفع شفاعته ذي جاه في بعض شئون الحياة، وفي بعض المواقف قد يتمكن المرء من الخلاص عن طريق دفع العوض أو الافتداء بشيء، وقد يصادفه مُعين يقوم بمساعدته على تخليصه مما يكون قد تورط فيه، غير أن أي شيء من هذا النوع لا يغني عن أحد في الآخرة فتياً.

إن الآخرة ليست بالورثة العرقية لطائفة بعينها ، إنما هي يوم العدالة الإلهية التي لا تعرف المحاباة ولا المجاملة ، لم يُمنح سيدنا إبراهيم عليه السلام ما مُنح من درجة الفضيلة والشرف إلا بعد أن مر بامتحانٍ عسيرٍ شاقٍ ، وبالتالي ثبت كمال صدقه وغاية إخلاصه في طاعة الله تعالى ، وتلك هي سنة الله في أفراد ذريته من بعده كذلك ، فمن يكن منهم تتوافر فيه كل الشروط العملية المطلوبة، سينال حظه من هذا الوعد الإلهي ، وأما الذي لم يتمكن من إثبات جدارته وصلاحيته في ميزان العمل ، فسيلقي المصير نفسه الذي قرره الله تعالى للمجرمين أمثاله ، وإذا كان سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يتم تعيينه في منصب الإمامة إلا بعد اجتيازه بنجاح سلسلة من الاختبارات الصعبة القاسية للغاية ، فإن هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن منصب القيادة والإمامة لا يتسنى الوصول إليه إلا عن طريق التضحيات وحده ، والواقع أن الشخص الذي يختار غايةً أو هدفاً بمقابل تضحياتٍ جسامٍ يكون أسرع وأسرع من غيره في سبيل ذلك الهدف ، ولذا فمن الطبيعي أن يكون هو الذي يتولى آخر الأمر زمام قيادته .

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ ۖ وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ١٢٥ ﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِن الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ١٢٦ ﴿

مَثَابَةٌ لِّلنَّاسِ: مرجعاً أو ملجأً أو مجمعاً أو موضع ثواب لهم .

وَعَهْدَنَا: وصينا أو أمرنا أو أوحينا .

بَيْتِي: الكعبة المشرفة بمكة المكرمة .

أَضْطَرُّهُ: أدفعه وأسوقه وأجته .

كل عام يفد المسلمون إلى بيت الله الحرام، تاركين أوطانهم من جميع أنحاء العالم، فلا يجوز هنا لأحد أن يبغى أو يعتدي على أي كائن حي، فقد جعل حرم الكعبة مركزاً دائماً للعبادة، ولذا يكون هناك أقصى اهتمام بتطهيره من كل أنواع الرجس والتلوث، ويُطاف حول الكعبة، ويتم هناك ذكر الله تعالى بعيداً عن هموم الدنيا وضوضائها، ويُستغل هناك بالركوع والسجود لله تعالى، ولقد كانت هذه المنطقة في الزمن القديم أكثر مناطق العالم جذباً وأقربها إلى أسباب العيش؛ لأنها - بسبب أراضيها الرملية الترية وكونها مليئةً بهضابٍ قاحلةٍ جرداء - لم تكن تصلح لأي نوع من الزرع والنبات، وكانت هذه المنطقة غير مأمونةٍ للغاية، وقبل أربعة آلاف سنةٍ أمر سيدنا إبراهيم عليه السلام بأن يذهب بأسرته إلى هذه المنطقة ويُسكنها هناك، ولقد قام سيدنا إبراهيم عليه السلام بتنفيذ ما أمر به تنفيذاً فورياً ومن غير ترددٍ، وعندما فرغ من نقل أسرته إلى هذه المنطقة الجذباء توجه إلى الله تعالى داعياً: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وقد استجاب الله تعالى لدعوة إبراهيم، فلم تزل هذه المنطقة نموذجاً رائعاً لوفرة الرزق وانتشار الأمن والسلام في أرجائها.

يجب على المؤمن أن يعيش في هذه الدنيا أينما كان، بحيث لا يغيب عن باله للحظةٍ واحدةٍ أنه راجع إلى الله لا محالة، وعليه ألا يؤذي أحداً ممن يتعايش معهم في هذه الدنيا، ويجب عليه أن يعلم أن الأرض كلها موضع عبادة الله عز وجل؛ ولذا فعليه ألا يُدنسه من أرجاسه وأقذاره، ويجب أن تدور حياته كلها حول الله سبحانه وتعالى، وإن كان يعيش - من حيث الظاهر - في هذه الدنيا، لكن يجب أن يكون قلبه موصولاً بالله تعالى متوجهاً إليه دائماً، وينبغي أن يخضع أمام الله بكامل وجوده، ثم عليه أن يكون مستعداً تمام الاستعداد لكل ما يقتضيه الدين من تضحيةٍ، حتى ولو كان ذلك ترك الأهل والعيال منفردين في «صحراء مجدية» وبعدما يفرغ من تنفيذ ذلك فليتوجه إلى الله سائلاً عونته ونصرته، ولا عجب أن يُفجّر الله لعبده ينابيع الرزق في صحراء قاحلة جذباء.

إن زينة الحياة الدنيا وزخارفها - ولو حصل عليها أحد باسم الدين - لا تدل بالضرورة على أن الله قد اختار صاحبها لمنصب الإمامة والقيادة ، إذ المتاع الدنيوي ليس إلا لغرض الامتحان، وكل بني آدم ينال حظة منه على السواء ، بينما الإمامة تعني أن يتم اختيار عبدٍ من عباد الله ليقوم بتمثيله تعالى بين شعوب الأرض .

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

مُسْلِمِينَ لَكَ: منقادين خاضعين مخلصين لك .

مَنَاسِكَنَا: عرفنا معالم حجنا أو شرائعه .

وَيُزَكِّيهِمْ: يطهرهم من الشرك والمعاصي .

لقد قرر الله جل شأنه أن يتخذ من الحجاز مركزاً عالمياً للدعوة الإسلامية ، واختار سيدنا إبراهيم وولده -عليهما السلام - لكي يقوما بإنشاء هذا المركز وتنظيمه ، والكلمات التي كانت تفيض من لسان إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - خلال بناء الكعبة وهي من ناحية دعاء، ومن ناحية أخرى إعلاناً بانضمام روحين اثنين إلى الخطة الإلهية العظيمة ، ومثل هذا الدعاء يكون انقصاد الإلهي بالذات ، ولذا فقد تقبله الله تعالى قبولاً حسناً، فانفجرت من الصحراء العربية الجدباء عين الإسلام الأبدية ، وقد جعل الله تعالى قلوب بني إسماعيل راغبة ميالة إلى خدمة دينه على وجه خاص؛ مما أدى إلى قيام دعوة إسلامية منتشرة بينهم ، وبهم أرشد الله تعالى عباده إلى طريق الحياة المرضية عنده، والتي تستوجب إقباله ورحمته على عباده ، ثم بُعث في بني إسماعيل أنفسهم ذلك النبي الخاتم الذي قام - لأول مرة في التاريخ - بتحقيق العمل النبوي في

صورة نموذج تاريخي كامل .

إن أول أعمال النبي « تلاوة الآيات » ، ومعنى « الآية » : العلامة .. أي الشيء الذي يصلح أن يكون دليلاً على شيء آخر، ولقد أودع الله تعالى فطرة الإنسان وهذا العالم الخارجي، عدداً لا يُحصى من الآيات للوصول إلى معرفته تعالى ، غير أن هذه الآيات توجد في صورة رموز وإشارات ، ويتناول الرسول تلك الإشارات بالشرح والإيضاح ، فهو يمنح الإنسان ذلك البصر الذي ينظر به في آثار الربوبية متجلية في كل شيء ، والمراد بالكتاب هو « القرآن » .

إن العمل الثاني من أعمال النبي : أن يكون « مهبط الوحي الإلهي » ، فهو يتلقاه من عند الله تعالى ثم يقوم بإبلاغه إلى الناس ، ومعنى الحكمة : « البصيرة » إن المرء حين يظفر بذلك النظر الذي يُبصر به آيات الله تعالى ، وحين يقوم بصياغة عقله وعواطفه في قالب التعليمات القرآنية ، فيشتعل في داخله نور فكري ، ويرتفع مستواه الشعوري إلى مستوى الحقيقة العليا ، وعندئذ يتمكن من الوصول في كل أمرٍ إلى ذلك القرار الصائب المطلوب عند الله تعالى ، وأما « التزكية » فتعني : تطهير شيء من كل العناصر غير الملائمة ، حتى يمكنه الوصول إلى كماله الطبيعي في مناخ ملائم منسجم ، وآخر ما يستهدف النبي ويسعى جاهداً نحوه هو أن يقوم بإعداد جيلٍ تكون صدورهم معمورةً بالاعتقاد في الله تعالى وحده ، وخاليةً من الاعتقاد في كل ما سواه ، وأن تكون أرواحهم صافيةً نقيةً متحررةً من العقد النفسية ، وبالجملة فالنبي يعمل على إنشاء أفرادٍ مستعدين ليتلقوا ذلك الرزق الرباني الذي أودعه الله تعالى هذا الكون لعباده المؤمنين به .

﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ۗ لَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۗ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَنْبِيَّ ۖ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٧﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ

حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ  
وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣١﴾  
تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴿١٣١﴾

يَزْعَبُ عَنْ: يزهد وينصرف عن .

سَفِهَ نَفْسَهُ: جهلها وامتهنها واستخف بها ، أو أهلكتها .

أَسْلِمَ: انقاد . أو أخلص في العبادة لي .

الَّذِينَ: دين الإسلام صفوة الأديان .

خَلَّتْ: مضت وسلفت .

لم تكن دعوة رسول الله ﷺ مختلفة في حقيقة أمرها عن دعوة إبراهيم عليه السلام غير أن اليهود الذين كانوا يعتزون بكونهم أتباع سيدنا إبراهيم عليه السلام لم يلبثوا أن صاروا أكبر المعارضين لدعوته ﷺ ، ومرّد ذلك إلى أن الملة الإبراهيمية التي قام النبي العربي بدعوة الناس إليها كانت تتمثل في «الإسلام» وهو يعني الاستسلام المطلق والخضوع الكامل لله سبحانه وتعالى ، ولقد أكد القرآن الكريم أن إبراهيم كان يدين بدين الإسلام ، وأنه لم يُوصَ أبناءه إلا بذلك الدين ، وعلى العكس من ذلك فإن الدين الذي عزاه اليهود إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام كان يخلو تماماً من التأكيد على ضرورة الاستسلام والخضوع لله ، حيث الجئنا تصوير مكفولة بمجرد أوهامٍ وتخيلاتٍ رخيصة ، ولم تكن معها أية حاجة ماسية إلى أن يقوم المرء بتغيير حياته المتحررة المنطلقة من كل القيود والالتزامات ، وإن النجاة - طبقاً لدين النبي العربي ﷺ كان يدور أمرها كله حول العمل وحده ، في حين ظن اليهود أن في مجرد الانتساب إلى «طائفة أصفياء الله» والاعتقاد فيهم كل غنى وكفاية للحصول على النجاة ، فالدين في نظر الأول عبارة عن التعليقات السهاوية، وفي

نظر الأخير عبارة عن مجرد مجموعة طائفية اتخذت شكلاً معيناً تحت التقاليد العنصرية والتخيلات القومية .

إن الانتساب إلى الصالحين والأتقياء - سواء كانوا ممن مضوا أو ممن لا يزالون على قيد الحياة - ربما يبعث المرء على الاطمئنان بأنه سيُحشر في زميرتهم، وأن نقصان عمله سيتم تلافيه بوفرة أعمالهم ، وقد ذهب اليهود بهذه الأمنية الحاملة إلى أن وضعوا عقيدة «النجاة المتوارثة» وبالتالي عقدوا كل آمالهم على تقديس سلفهم الصالحين ، غير أن هذا ليس إلا خداعاً نفسياً محضاً، إذ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر : ٣٨] ، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤] ، فلا يُسأل أحد عن جرائم غيره، كما لا يكون لأحد نصيب من حسنات غيره.. فكل إنسان ينال جزاءه عند الله طبقاً لعمله.. ومعنى قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٢] : أنكم - ولا شك - ستواجهون عقبات وصعوبات مختلفة في طريق الاستسلام لله، وسينهدم صرح آمالكم وتمنياتكم الجميلة ، ولكن - مع ذلك كله - يجب عليكم أن تثبتوا على دين الإسلام إلى آخر أنفاسكم .

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصْرَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ﴾ ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ

نَصْرِي قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّٰهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَدَةً عِنْدَهُ مِنَ اللّٰهِ وَمَا  
 اللّٰهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا  
 تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

حَنِيفًا: مائلا عن الباطل إلى الدين الحق .

وَالْأَسْبَاطِ: أولاد يعقوب أو أحفاده عليه السلام .

صِبْغَةَ اللّٰهِ: الزموا دين الله، أو فطرة الله .

إذا كان رسول الله ﷺ يدعو إلى الديانة الإبراهيمية نفسها، التي كان اليهود والنصارى يدعون انتسابهم إليها، إذن فما السبب وراء قيامهم في وجهه ومعارضتهم إياه ؟!

إن السبب في ذلك أن الدين - طبقاً لدعوة النبي العربي ﷺ يتمثل في أن يصبغ المرء حياته كلها بصبغة الله تعالى، وأن يجعل من نفسه إنساناً ربانياً مائلاً عن كل الجهات إلى الذات الإلهية وحدها، وأما الدين عند اليهود - على عكس ذلك - فلم يكن يعدو أن يكون مجرد رمزٍ للفخار القومي، وبما أن دعوة النبي العربي ﷺ كانت تمثل الضربة القاضية على عقليتهم الافتخارية، لم يلبثوا أن وقفوا في وجه دعوته، وناصبوه العداة .

ومعنى قوله: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة: ١٤١] إنه لا توارث فيما يتعلق بالحق، لقد زعم اليهود أن ثواب حسنات سلفهم الصالحين مما لا يزالون يتوارثونه كابراً عن كابرٍ، كما ظن المسيحيون أن ذنوب الجيل السابق لا تزال تنتقل بالوراثة إلى الجيل اللاحق، إلا أن كل العقائد من هذا النوع باطلة، إذ إن كل إنسانٍ يكافأ عند الله تعالى على أساسٍ من عمله، وليس على أساسٍ مما أتى به غيره من عملٍ .

ومعنى قوله: ﴿ فَإِنَّ ءَأَمْنُوا بِمِثْلِ مَا ءَأَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ [البقرة: ١٣٧] إن

الإيمان الحقيقي المطلوب عند الله تعالى هو الذي يكون ممثلاً لإيمان الصحابة ، والفارق الجوهرى لإيمان الصحابة الكرام مرتبط بالوضع الذي آمنوا فيه في عهدهم ، حيث عرفوا النبي محمداً ﷺ و آمنوا به ، على حين أنه كان في بداية تاريخه ، ولم يكن قد اقترنت بشخصية أمجاد تاريخية بعد ، كما كان الشأن بالنسبة للأنبياء السابقين حينذاك ، وهذا يعني أن إقرار الحق المعتد به والجدير بالقبول عند الله سبحانه وتعالى هو الذي يكون المرء قد أدرك الحق في صورته المجردة فأقر به ، وأما إذا كان الحق قد تحول إلى تراث قومي ، أو صار محاطاً بصروح المجد والعظمة نتيجة للعمل التاريخي ، فإن إقرار الحق عندئذ لا يكون إقرار الحق في حقيقة الأمر ، بل يكون إقراراً بشيء تحول إلى مفخرة قومية وضرورة تاريخية لا بد منها .

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَنَهُمْ عَن قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ۗ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٧﴾ ﴾

السُّفَهَاءُ: الخفاف العقول : اليهود ومن شاكلهم في إنكار تحويل القبلة .

مَا وَلَاَهُمْ: أي شيء صرفهم ؟

عَن قِبَلَتِهِمْ: عن بيت المقدس .

أُمَّةً وَسَطًا: خيارا . أو متوسطين معتدلين .

يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ: يرد عن الإسلام عند تحويل القبلة إلى الكعبة .

لَكَبِيرَةً: لشاقة ثقيلة على النفوس.

لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ: صلاتكم إلى بيت المقدس .

إن قضية القبلة تتصل بمظاهر العبادة، ودون حقيقة العبادة، والغاية الأصلية من القبلة تنظيم العبادة عن طريق تحديد جهة معينة لأدائها؛ إذ الجهات كافة لله سبحانه وتعالى؛ فأياً جهة قررها لعباده ستكون وحدها الجهة العبادية المفضلة لديه؛ سواء أكانت جهة الشرق أم جهة الغرب.. غير أن القبلة الأولى - وهي بيت المقدس - كانت قد اكتسبت نوعاً من القدسية نتيجة استمرار العبادة نحوها لمدة طويلة، مما جعل الكثيرين يواجهون صعوبة بالغة في تكوين عقليتهم طبقاً للقبلة الجديدة - أي الكعبة - التي تم إعلانها في السنة الثانية من الهجرة.

وقد اتخذ اليهود هذا الحادث - أي حادث تحويل القبلة - ذريعةً للطعن في شخصية الرسول وإشاعة الأقاويل ضد الإسلام، فقال بعضهم: إن بيت المقدس لم يزل قبلة الأنبياء قاطبةً منذ قديم الزمان؛ إذن فما الذي دعا المسلمين إلى الانصراف عن ذلك؟!، ومن هنا يبدو أن دعوة الإسلام ليست بدعوة إيجابية، إنما هي حركة سلبية ترمي إلى مجرد العناد والمعارضة لليهود، وقال البعض الآخر: إن مدعي النبوة هذا في حيرة وارتباكٍ من أمر رسالته، فيأمر بالتوجه نحو بيت المقدس تارةً، ونحو الكعبة تارةً أخرى!! ومنهم من قال: إذا كانت الكعبة هي القبلة أصلاً، فمعنى ذلك أن الصلوات التي أداها المسلمون من ذي قبل، متوجهين نحو بيت المقدس، قد ذهبت كلها سدىً ودون جدوى؟! وما إلى ذلك من أقاويل وشبهاتٍ أثارها اليهود عند تحويل القبلة، غير أن عباد الله الصادقين الذين لم يكونوا متورطين في المظاهر والأشكال الظاهرية، سرعان ما أدركوا أن العبرة ليست بجهة القبلة، بل العبرة كلها بالحكم الإلهي وحده، فالله وحده يحدد القبلة، ولا يسع الإنسان إلا أن يتجه نحوها حالاً، وقد ورد في الروايات أن النبي ﷺ بعد حوالي سبعة عشر شهراً أُمر بتحويل القبلة، وكان آن ذاك

يصلي بالمدينة مع جماعة من أصحابه وما إن جاء الحكم الإلهي حتى استدار هو والمسلمون - من جهة بيت المقدس - نحو الكعبة، أي من جهة الشمال إلى الجنوب .

إن تحويل القبلة كان علامة تشير إلى أن الله تعالى قد صرف بني إسرائيل عن منصب الإمامة ، وعين مكانهم الأمة الإسلامية، وأن الكعبة بدلاً من بيت المقدس ستكون مركزاً عالمياً للدعوة إلى دين الله ، والوحدة الداخلية بين عباده المؤمنين ، ووصف الأمة الإسلامية بـ «الوسط» يعني أن المسلمين وُسطاء بين الله وعباده ؛ لإبلاغ الهداية الإلهية إلى الناس كافة، لأنهم قد اطلعوا على رسالة الله بواسطة الرسول، وقد صار عليهم الآن أن يقوموا بإيصال هذه الرسالة إلى جميع الشعوب والأمم باستمرارٍ حتى قيام الساعة؛ والشأن أن نجاح المسلمين في الدنيا والآخرة على السواء، متوقف كلياً على أدائهم هذا الواجب .

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ: تلقاء الكعبة

الْمُمْتَرِينَ: الشاكين في كتابهم الحق مع العلم به.

لقد اعتاد رسول الله ﷺ أن يتبع سنة الأنبياء السابقين في الشؤون التي لم تكن قد نزل

فيها الوحي بعدُ، وطبقاً لعادته تلك كان قد اتخذ من بيت المقدس قبلةً له في البداية؛ ذلك لأن بيت المقدس ظل قبلة أنبياء بني إسرائيل قاطبةً منذ عهد سيدنا سليمان - عليه الصلاة والسلام - إلى أن اختار الله نبياً من غير اليهود، وصار من الضروري تبعاً لذلك، أن يتم فصل الدين عما قد التصق به من تقاليد يهودية؛ حتى يمكن أن يظهر دين الله تعالى في صورته النقية الخالصة من كل النواحي، وكان النبي ﷺ يترقب - منذ نزول الوحي - تحويل القبلة، إلى أن أمر بذلك في السنة الثانية من الهجرة .

ولقد كان اليهود عامةً - وعلماء اليهود خاصةً - على إمامٍ ومعرفةٍ بهذا القرار الإلهي - المتصل بتحويل القبلة -، فقد تم إخبارهم بذلك مسبقاً على السنة كل الأنبياء المبعوثين لهدايتهم ، غير أن اليهود لم يعترفوا بصدق النبي ﷺ والإيمان بما أرسله الله به من الدين الحق، ما عدا أفراد معدودين، مثل عبد الله بن سلام ومخبريق - رضي الله عنهما -، وما منع اليهود من الاعتراف والإيمان إلا اتباعهم أهواء النفس، فلم يرغبوا في الخروج من الحلقة المفرغة للأمانى الطائفية التي كانوا يعيشون على أساسها ، وإذا كان الإنكار ناشئاً عن اتباع الأهواء فمن المستحيل أن يؤثر فيه أي دليل أو برهان ، فمثل هذا الرجل يتخذ من إنكار الأدلة وسيلةً ليحصل على ذلك الرزق الرباني الذي لا يتأتى إلا لمن يعترف بالأدلة والبراهين .

وعندما يتم إعلان الحق من عند الله سبحانه وتعالى، فإنه يكون مدعماً بدلائل قاطعة، لا يمكن معها لأحد أن يبقى عاجزاً عن التأكد من صدقه وصحته، ففي مثل هذه الحال لن يقع في الشك والارتياب إلا الذين لا يعرفون الله، ولذا فلم يعد بإمكانهم أن يعرفوا كلمة الله تعالى ، وكذلك الذين يلجأون إلى إثارة الأقاويل والألعايب اللفظية ضد الحق، زاعمين أنهم قد عثروا على دعائم استدلالية متينة لإنكار الحق، فسرعان ما يعلمون أن اعتمادهم ذلك لم يكن على شيء سوى دعائم خيالية مزورة، قد اقترضتها أنفسهم بحثاً عن سكينتها الكاذبة .



بجعله محفوظاً في صورته الكاملة إلى يوم القيامة، وأن دين الله الذي يُعدّ مجرد أسطورة تقليدية، سيجعله جزءاً لا يتجزأ من التاريخ البشري حيث هو واقعة حقيقية ثابتة، وأن الدين الذي لم يكن قد تحول بعد إلى أسوة عملية مستقلة، فإنه سيقوم بتقديمه أمام الناس كأسوة عملية حية ملموسة، فالواقع أن القضية قضية إكمال الهداية الإلهية، وليس قضية تحديد الجهة الأكثر قداسة من بين الجهات العديدة .

وإنه قد صار من المحتوم، في أثناء بناء الكعبة بالذات، أن الكعبة ستكون مركزاً للدين الذي يُبعث به آخر الأنبياء ، وقد ظل الأنبياء السابقون جميعاً يخبرون الناس بذلك بصورة مستمرة، ومن ثم فإن جعل الله الكعبة قبلةً لجميع الأمم والشعوب كان يعني توثيقاً لاعتبار نبي آخر الزمان ﷺ ، فالذين يتمتعون بالجديّة لم يعودوا الآن بحاجة إلى أية حجة أخرى بعد هذا الإعلان الإلهي ، وأما الذين لا يخشون الآخرة، فليس هنالك شيء يردعهم عن الخوض في الأمور الباطلة ، فالخائفون من الله جل جلاله هم وحدهم المهتدون إلى سبيل الهداية، وأن ذكر الله الدائم هو وحده الذي يجعل شخصاً مؤهلاً ليذكره الله تعالى، وإن مخافة الله المستمرة هي وحدها الكفيلة بأن يؤمن الله صاحبها من كل خوف.

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٦﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَنَشِرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٨﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٩﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ: لنختبركم ونحن أعلم بأموركم .

صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ: ثناء أو مغفرة منه تعالى .

الدين هو أن يكون المرء قد وجد خالقه يقضي ليله ونهاره في ذكره وشكره الدائمين، وإن حياة كهذه هي مصدر كل أنواع السعادة واللذة، غير أن هذه السعادة واللذة لا يفوز بهما المرء في صورتها الحقيقية إلا في عالم الآخرة، إذ لم يجعل الله تعالى هذه الدنيا - التي نعيش فيها - مكان مكافأة وإنعام، بل جعلها دار اختبارٍ وابتلاء، فقد هيا فيها ظروفاً وملايساتٍ من شأنها أن تقف بمثابة حجر عثرة بين المرء وسيره على خط العبودية لله سبحانه وتعالى، ذلك لكي يُعرف الجادّ في إظهار إيمانه عن هو ليس بجادّ في ذلك؛ فدوافع النفس، ومطالب الأهل والعيال، ومصالح الدنيا، ووساوس الشيطان، وضغوطات الأوضاع الاجتماعية القاهرة، كل ذلك مما لا يزال محيطاً بالمرء متمثلاً بشتى صور الفتنة والإغراء الخلابية، ومن ثم يتحتم على المرء أن يفتن لهذه الفتنة والمغريات حتى لا يقع فيها، وبالتالي يستطيع الوفاء بمطالب الذكر والشكر بشكلٍ مستمرٍ .

وإن الوسيلة الوحيدة لمواجهة هذه العقبات أو المشكلات الاختبارية بنجاح واقتدار هي: الصلاة والصبر، أي الالتجاء الدائم إلى الله تعالى والتشبث به، والثبات الإرادي على الحق، بالرغم من كل ألوان الأذى والمحن التي تعترض سبيله، والواقع أن الذين لا يزالون صامدين في وجه الظروف غير المواتية، والذين يظلون وثيقي الصلّة بالله ولو بدا لهم النفع العاجل في غير الله، هم وحدهم الذين سيكتب لهم - طبقاً للقانون الإلهي - النجاح والسعادة الأبدية .

والسبب الثاني وراء الصعوبات والمصائب المعترضة في سبيل الحق، يكمن في دور المؤمن الذي يقوم به كداعٍ أو مبلغٍ، إن عمل الدعوة والتبليغ هو - بعبارة أخرى - عمل النصيحة والنقد، وإن كلاً من النصيحة والنقد ظل دائماً من أبغض الأشياء إلى الإنسان، ثم إن أشد الناس حساسيةً بالنسبة للإصغاء إلى النصيحة هم أولئك الانتهازيون الذين يتاجرون باسم الدين، حيث يُجِيل إلى أمثال هؤلاء الناس جميعاً أن بروز شخصية الداعي ورسالته في الساحة، إنما يعني تقليصاً لدائرة نفوذهم وإلغاءً لاعتبارهم ومكانتهم، فإن وجود الداعي يصبح بمثابة ميزانٍ محايد يتم عليه وزن كل شخصٍ وزناً دقيقاً؛ الأمر الذي يجعل طريق الداعي طريقاً شائكاً مخموفاً بمخاطر

وعقباتٍ لا تُعد ولا تُحصى.

فالداعي - عقب قيامه بدعوته - لا يلبث أن يفقد مركزه الاجتماعي، وأن تتحطم اقتصادياته، وأن تنسد كل أبواب الرقي والتقدم في وجهه، وقد تتعرض حياته للخطر .. إلخ، غير أنه ليس على الجادة إلا الذي يُؤذى متهمًا بالانحراف عن الجادة، ولا يظفر بالعطاء إلا الذي يفقد في سبيل الله، وليس بحي إلا الذي يضحى بحياته في سبيل الله، وليست جنة الآخرة إلا لمن حُرِم من جنة الدنيا لوجه الله تعالى .

﴿ إِن الصَّافَا وَالْمَرَوَّةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَن حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِن الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿٣٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٥﴾ إِن الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٣٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخْفَىٰ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

شَعَائِرِ اللَّهِ: معالم دينه في الحج والعمرة .

اعْتَمَرَ: زار البيت المعظم على الوجه المشروع .

فَلَا جُنَاحَ: فلا إثم عليه .

يَطَّوَّفَ بِهِمَا: يدور بهما ويسعى بينهما .

يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ: يطردهم من رحمته .

يُنظَرُونَ: يُؤخرون عن العذاب لحظة .

كان سيدنا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - يقطن بالعراق، وقد خرج - امتثالاً

لأمر الله تعالى - بزوجه هاجر وولده الرضيع إسماعيل من وطنه، وتركهما في تلك المنطقة التي تعرف اليوم بمكة ، حيث لم يكن بها إذ ذاك ساكن ولا ماء ، وعندما اشتد العطش بهاجر وولدها، خرجت بحثاً عن الماء، وظلت تسعى قلقاً حائرة بين الجبلين - الصفا والمروة - ولكن دون جدوى، ولما انصرفت عائدةً - بعد سبعة أشواطٍ باحثةٍ - فإذا بعين ماءٍ قد انفجرت بالقرب من مقرها، وهي العين التي اشتهرت - فيما بعد - بززم وهذا حادث رمزي؛ يظهر لنا من خلاله كيف تكون معاملة الله تعالى مع عباده المخلصين ، فلو أن عبداً من عباد الله ظل يسيرُ قُدماً في سبيل الله، حتى ينتهي به المسير إلى حيث لم تبق تحت قدميه سوى تربةٍ رمليةٍ مقفورةٍ؛ لفجرَ الله له - بعظيم قدرته - ينابيع الرزق في الصحارى والتفارى، وإنما الغاية من السعي بين الصفا والمروة في أثناء الحج والعمرة، هي استحضار ذلك الحدث التاريخي العظيم وتحليل ذكراه .

ولقد كانت حياة رسول الله ﷺ وتعاليمه بحيث تتضمن آياتٍ إلهيةً واضحةً لدرجة أنه لم يكن بالمتعذر على أحد أن يتأكد من أنه نبي مرسل من عند الله تعالى ، غير أن علماء اليهود لم يصدقوه ، ومرّد ذلك إلى الخوف الذي كان يسيطر عليهم؛ لأنهم لو اعترفوا بصدق النبي العربي ﷺ لأصبحت سيادتهم الدينية أثراً بعد عين؛ مما سيؤدي - بالتالي - إلى حرمانهم من كل المنافع المادية التابعة لذلك، فلجأوا إلى سياسة كتمان الحق، حاسبين إياها خيراً وسيلةً لنجاحهم، مع أن سر نجاحهم الحقيقي يكمن في إعلان الحق ، ولقد تجاهل هؤلاء ذلك حينما اتخذوا موقف الإحجام عن الحق وكتمانه .

إن أول وأهم ما يطلبه الله تعالى من عباده هو أن يتقدموا نحو الحق على كل حالٍ من الأحوال، حتى ولو كان ذلك على حساب حرمانهم من كل ما يملكون ، فإن العبد إذا صار محروماً عاطلاً لأجل الحق، ظفر بما هو أكبر من كل شيء على الإطلاق، ألا وهو نصرة الله رب العالمين .

غير أن أبواب الرحمة الإلهية لا تزال مفتوحة للإنسان في كل وقتٍ؛ لأن الإنسان إذا ارتكب خطيئةً أو ذنباً، ثم استفاق ضميره، وعاد إليه رشده، فاتجه نحو الوجهة

الصحيحة، وقام بإعلان ذلك الأمر الحق الذي يريد الله تعالى أن يتم إعلانه، فإن الله سيعفو عنه ويغفر له، وأما الذين ظلوا قائمين على موقف الجحود وعدم الاعتراف بالحق، وماتوا وهم كذلك، فأولئك سيبعدون عن رحمة الله تعالى إلى الأبد .

﴿وَالنَّهْكَمُ إِلَهُهُ وَاحِدٌ ۗ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢٢﴾ ۚ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ



وَبَثَّ فِيهَا: فَرَّقَ ونشر فيها بالتوالد.

وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ: تقلبها في مهامها وأحوالها .

إن إله الإنسان واحد لا غير، وهو وحده جدير بأن يكون مركزاً لتوجهات الإنسان واهتماماته، والواقع أن وجودنا هذا، وكل ما نتمتع به على وجه الأرض، ليس إلا بفضل أن إلهنا هو مصدر الخير والرحمة والإحسان، ولذا فينبغي للمرء أن يتخذه - تعالى - معبوداً لنفسه بكل معنى الكلمة؛ بحيث يمارس حياته طبقاً لمرضاته، ويستعذب الموت في سبيله، وأن ترتبط كل آماله وطمحاته بالذات الإلهية وحدها، ارتباطاً وثيقاً دائماً لدرجة أن يصبح الله جل شأنه في نظر الإنسان كل شيء، تماماً كما تكون الأم كل شيء في نظر طفلها الصغير .

وإن هذا الكون الفسيح الممتد أمامنا تعريف رائع بالذات الإلهية وصفاتها الكاملة، فوجود مصنع هائل لا يُدرك مداه؛ كالذي نشاهده في صورة السهوات والأرض؛ يقتضي أن يكون له صانع قام بإيجاده؛ ويقوم بتدبيره وتسييره، وسير الأشياء والظواهر كلها سيراً متناهيماً في الضبط والتناسق والانسجام؛ برغم ما يبدو هنالك من تناقض واختلافٍ شاسع بين ظاهرة وأخرى؛ يقوم دليلاً على أن خالق الوجود ومالكه واحد،

وكون كل أشياء هذا الكون مفيدةً ومحققةً لصالح الإنسان بوجه من الوجوه، مما يؤكد أن الكون لم يوجد بمحض مصادفة واتفاق، بل قد تم إيجاده وتصميمه عن قصد، وإرادةٍ حكيمةٍ هادفةٍ، وسريان الحياة والنضارة والحيوية في داخل الأشياء التي تبدو ميتةً ومضمحلةً، نتيجةً للعملية الطبيعية، مما يشهد على أن الموت في هذا الكون حادث مؤقت وليس بقاءً دائماً، فما من موتٍ هنا إلا وتبعه الحياة الثانية بالضرورة، ووجود عددٍ لا يُحصى من الحيوانات المختلفة الأنواع من ماءٍ واحدٍ وغذاءٍ واحدٍ؛ يدل على عظيم قدرة الله تعالى، وإحاطة الهواء بالإنسان من كل جانبٍ وفي كل حينٍ؛ مما يُشعر بأن الإنسان تحت سيطرة خالقه المطلقة والدائمة، فلا يمكنه الفرار من ذلك الأتة، وكل الموجودات في هذا الكون مسخرةً وفق مقتضيات الحياة الإنسانية، مما يُثبت أن خالق الإنسان ذو رحمةٍ واسعةٍ بلا حدود، فيهتم بتدبير حاجاته قبل أن يخرج الإنسان إلى حيز الوجود.

وما هذه الآيات المنبثقة في أرجاء الكون إلا تجليات الخالق العظيم في خلقه، فمن خلال ذلك يظهر ويتجلى الوجود الإلهي، ووحدانيته، واتصافه بجميع صفات الكمال، بصورةٍ واضحةٍ جليةٍ، لدرجة أنه لا يمكن معها أن يظل أي ذي بصيرةٍ محروماً من مشاهدته، ولا يعجز عاقل عن إدراكه، على أنه لا يُدرك الدلائل إلا الذي يتأمل فيها، والذي يكون جاداً تمام الجدية بالنسبة لمعرفة الحق، والذي لا تتأثر آراؤه وأحكامه بالمصالح والأغراض الذاتية، والذي لا تقف نظرتة عند ظواهر الأشياء، بل تتجاوزها حرصاً منه على استكشاف الحقائق الجوهرية العميقة التي تكمن وراء سطوح الأشياء وأشكالها الظاهرية.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٥٠﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٥١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا لَنَا كَرَّةٌ فَنَتَّبَرَأَ مِنْهُمُ كَمَا

تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ



أَنذَادًا: أمثالا من الأوثان يعبدونها .

وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ: تفرقت الصلات التي كانت بينهم في الدنيا

الأسبابُ: من نسب وصداقة وعهود.

كِرَّةً: عودة إلى الدنيا حَسْرَاتٍ: ندامات شديدة.

إن الإنسان - بحكم فطرته وأحواله المحيطة به - هو الكائن الذي يتطلع دائماً إلى سندٍ خارجي، يتمثل في وجود من شأنه أن يمدّه بما يستبدل بضعفه قوةً وبنقصه كمالاً، والذي يكون عنده موضع الثقة والاعتماد، ويمنح روحه الطمأنينة الصادقة واليقين، وأن نُشرك أحداً في حياتنا على هذا النحو، يعني اتخاذاً إياه إلهنا، والمرء إذ يتخذ من وجود ما إلهه فإن ذلك يستتبع تلقائياً أن تصبح كل عواطف الحب والإجلال الجياشة في نفسه خاصةً بإلهه ذاك.

إن دافع الحب كما من بصورة جبلية في صميم الطبيعة البشرية، ومن ثم كان المرء مجبراً على أن يُحب أحداً حباً شديداً، وإنه من أحبه أحد من الناس هذا «الحب الشديد» هو الذي يكون إله ذلك الشخص ومعبوده، كما لا يمكن مشاهدة الله بصورة مباشرة في هذه الدنيا؛ فعادة ما يرفع عبّاد المظاهر بعض الموجودات المرئية إلى درجة الألوهية؛ تلك التي لا يستحقها أحد غير الله سبحانه وتعالى، وحينما تتمثل هذه الآلهة الباطلة في أولئك الرؤساء أو الزعماء الذين يكتسبون صفة المرجعية للناس، بناءً على ما يمتلكون من الخصائص والسمات الظاهرية، حينذاك يقوم الإنسان بملء الفراغ الداخلي في فطرته بأحد الرؤساء أو القادة.

ما هو السبب وراء ظاهرة الانحراف هذه؟ إن السبب هو انخداع الناس عادةً بشيء من البريق الظاهري الذي يحدو بهم اعتبار صاحبه «عظيماً»، فقد يتأثر الناس غاية التأثير بشخص يروونه يتمتع بمزايا وصفات غير عادية، وقد يصير البعض موضع

إعجاب الناس وإجلالهم نظراً لمنصبه المرموق في المجتمع، وربما يخذع الناس بشخص عندما يجدون حوله عدداً ضخماً من الأتباع المعجبين به ، وقد تحيط ببعض الناس هالة من القصص والأساطير الغامضة، مما يجعل الآخرين يظنون أنه يمتلك قدرات وقوى خارقة غير عادية ، غير أن الحقيقة أنه ليس ثمة أحد غير الله في هذا الكون يملك أي نوع من العزة أو العظمة، وأن دعاوى الألوهية الباطلة إنما تستمر ما دام الله لا يظهر عياناً، وما إن يظهر الله تعالى للعيان حتى ينقلب الوضع تماماً لدرجة أنه سيفر الكبار وقتئذٍ من صغارهم التابعين، والصغار سيفرون من كبارهم المتبوعين ، وأن العلاقة التي كانت موضع اعتزاز الإنسان في الدنيا، والتي كان يعدُّ ولاء لها وحرصه عليها أكبر وأنجح وسيلة لنجاته فإنها ستغدو في الآخرة هباءً كأن لم تكن لها أية حقيقة ، وهنا سيقطب الإنسان أوراق حياته الماضية وكله أسى وندم وحسرة، وحينئذٍ لا يكون بمقدوره أن يفعل شيئاً لتدارك ما فات .

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٥٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَكُمْ عَمًى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ: بالمعاصي والذنوب .

وَالْفَحْشَاءِ: ما عَظُم قبحه من الذنوب .

الْفَيْنَا: وجدنا .

يَنْعِقُ: بصوت ويصيح .

بُكُمْ: حُرْس عن النطق بالحق .

ما هو الشرك؟ إنه توحيد عواطف العبودية نحو وجهةٍ أخرى غير الله تعالى، إن الله تعالى هو الضرورة الكبرى اللازمة لحياة الإنسان وسعادته، وعاطفة الالتجاء إلى الله كامنة في الطبيعة البشرية بصفة عميقة لدرجة أنه لا يمكن معها لأي شخص أن يعيش حياة سعيدة هائلة بدون الله تعالى، وإنه ليس ضلال الإنسان هو التخلي عن الله مطلقاً، بل اتخاذه إلهاً مصطنعاً خيالياً مكان الإله الحقيقي، ولذا فقد حرمت الشريعة الإسلامية كل شيء من شأنه أن يُحوّل مجرى عواطف الإنسان الفطرية نحو اتجاه غير الله سبحانه وتعالى.

ولقد جرت عادة الوثنيين على أن يطلقوا بعض البهائم باسم أصنامهم، ويعدون أكل لحوم تلك البهائم السائبة أو الانتفاع بها من أي وجهٍ حراماً، وما زالت هذه العادة الوثنية جارية إلى يوم الناس هذا في شكل «الطائر الوطني» و«الحيوان الوطني» ونحوهما في ظل الحضارة الحديثة المعاصرة، والشأن أنه ليس تحريم أي شيء على هذا النحو مجرد قضية قانونية بسيطة، إذ إن شيئاً ما حين يتم تحريمه فإن العامل الرئيسي وراءه يرتبط بأن ذلك الشيء «مقدس» بناءً على أية عقيدة مزعومة، وهذا تدخل مباشر في الحقوق الإلهية، وإشراك غير الله فيها، فإن ذلك يعني توزيع مشاعر الاحترام والتقديس الفطرية التي هي لله وحده، والتي يجب أن تكون بصفة كلية ودائمة لله تعالى وحده لا غير.

وإنما هو الشيطان الذي يزين للناس مثل هذه التقاليد والأعراف الباطلة، حتى يتمكن من توجيه عواطف الإجلال والتقديس الكامنة في طبيعة الإنسان نحو جهاتٍ شتى، وبالتالي يُضعف صلته بالله جل جلاله.

وحين يُعتقد أن أي شيء غير الله «مقدس» فإن الإنسان المنحرف لا يزال يضيف إليه أوهاماً وتخيلاً مستحدثةً بين الحين والحين، فقد يوصف «حيوان» بتلك الأوصاف الجليلة التي هي من خصائص الذات الإلهية وحدها، ويُعد ذلك الحيوان

وسيلةً للاقتراب من الله تعالى ، كما يلتمس منه الخير والبركة ، ويُعقد عليه الأمل والرجاء لتذليل العقبات وتحقيق مهمات الأمور ، ثم إذا وصلت هذه العادة إلى الأجيال التالية اعتبرتها سنةً مقدسةً مأثورةً عن الآباء ، مما يجعل أي نوع من التأمل والتفكير فيها أمراً مستحيلاً ، حتى يصل الأمر بأولئك القوم في النهاية إلى حيث لا تبقى لديهم أية قدرة على فهم الدليل والبرهان ، وكأنهم لا يملكون أعيناً يُبصرون بها ، ولا آذاناً يسمعون بها ، ولا عقولاً يُدركون بها .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (١٧) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنَ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١٧) إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ (١٧) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (١٧) ﴿

وَالدَّمَ: المسفوح وهو السائل .

وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ: يعني الخنزير بجميع أجزائه .

وَمَا أُهْلَ بِهِ: ما ذكر عند ذبحه اسم غيره تعالى من الأصنام لِغَيْرِ اللَّهِ وغيرها .

اضْطُرَّ: الجأته الضرورة إلى تناول مما حرم .

غَيْرَ بَاغٍ: غير طالب للمحرم للذة أو استئثار على مضطر آخر .

وَلَا عَادٍ: ولا متجاوز ما يسد الرمق .

ثَمَنًا قَلِيلًا: عوضاً يسيراً .

وَلَا يُزَكِّيهِمْ: لا يطهرهم من دنس ذنوبهم .

شِقَاقٍ بَعِيدٍ: خلاف ونزاع بعيد عن الحق .

المشاعر التي ينبغي أن تنبعث في داخل المرء - وهو يتناول شيئاً من المآكل والمشروبات - هي مشاعر الشكر والطاعة الإلهية، والتي تتلخص في الإحساس القائل: «أنا نأكل من رزق الله طبقاً لحكم الله تعالى» إن هذا الإحساس يوقظ في نفس المرء عاطفة العبودية الإلهية غير أن العقائد المزعومة تُغير من هذه النفسية السامية؛ لأنها تركز اهتمام الإنسان على الخصائص المفترضة للأشياء، ومن ثم فالشيء الذي ينبغي أن يكون مبعث عواطف الامتنان والشكر لله تعالى يصبح موضع الاحترام والتقدير، وهنا يرفع الإنسان مخلوقاً إلى درجة الخالق، وإنه ليس أساس حرمة شيء هو القدسية المفترضة في ذلك الشيء، أو ما قد نُسب إليه من عقائد خرافية باطلة.. لا، بل إن ذلك مرتبط بأسبابٍ أخرى مختلفة تماماً، وهي أن تكون تلك الأشياء نجسةً، وأن تكون مما نصت الشريعة على نجاسته وقذارته، مثل: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، أو ما ذُبح للأصنام وذكر عليه اسم غير الله.. إلخ، وقد أُبيح للمرء أن يأكل من المحرمات عند الاضطرار، أى: إذا ألجأته الضرورة القاسية إلى استخدام شيء من ذلك كالجوع أو المرض أو تحت ضغط الظروف الخالصة، ولكن بشرط ألا يتناول المرء الشيء الحرام بدافع الرغبة، ولا يأخذ منه أكثر مما هو يحتاج إليه لسد رمقه.

ومثل هذه العقائد الخرافية الباطلة إذا صارت الديانة المفضلة لدى السواد الأعظم، فإن أخوف ما يكون عند العلماء إذ ذاك هو الجهر بالحكم الإلهي في شأن تلك العقائد الرائجة، ذلك لكيلا يبتعد عنهم الجماهير المعجبون بهم والمعترفون لهم بالسيادة؛ لأن سياسة التكيف والانسجام مع اتجاهات العوام الضالين والمنحرفين مما يُكسبهم سعة النفوذ والعزة والمنافع المادية الكثيرة في الحياة الدنيا، ولكن أمثال هؤلاء الناس هم من أكابر المجرمين عند الله تعالى، فإن كتمان الحق من أجل الحفاظ على المصالح الدنيوية الهينة ليس من تلك الخطايا التي سيعفو عنها الله تعالى في الآخرة؛ إذ هي جرائم شنيعة لدرجة تجعل المرء محروماً من العناية الإلهية، ومن بين هؤلاء أنفسهم من هم أبعد ضللاً وأشدّ عتواً بالمقارنة إلى غيرهم، وهم أولئك الذين إذا عُرض عليهم الحق، بدلاً

من أن يعترفوا به، أخذوا يُثيرون حوله مناقشاتٍ فارغةً لا طائل تحتها، وينتهي الأمر بأمثال هؤلاء الناس إلى أن يستيقظ في داخلهم العناد والمكابرة، وبالتالي يصيرون بعيدين عن الحق ولا يعودون إليه أبداً .

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

البرّ: هو التوسع في الطاعات وأعمال الخير .

وَابْنَ السَّبِيلِ: المسافر الذي انقطع عن أهله .

وَفِي الرِّقَابِ: في تحريرها من الرق أو الأسر .

وَالصَّابِرِينَ: أخص الصابرين لمزيد فضلهم .

الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ: البؤس والفقر والسقم والألم .

وَحِينَ الْبَأْسِ: وقت قتال العدو .

لقد اتخذ اليهود من جهة المغرب قبلة عبادتهم، والنصارى من جهة المشرق، وظن كل من الفريقين أن جهته المختارة هي الجهة المقدسة، وأنهم باختيارهم جهة الله المقدسة ذلك، سينالون حتماً أعلى الدرجات عند الله تعالى، غير أن ليست العبودية الإلهية بأن يستند المرء إلى أية ركيزة مقدسة، وإنما العبودية الإلهية هي الاعتصام بحبل الله والتمسك به، والعمل الديني لا يتمثل في مظهرٍ شكلي، ولكنه - من حيث حقيقته وجوهره - يعني أن يظفر المرء بالله الذي هو نور السماوات والأرض، والذي هو

أقرب إلى الإنسان من جبل الوريد ، وإن الشيء الذي يحظى بالقبول عند الله ليس بمظاهر أو رسوم شكلية، وإنما العمل الذي يؤديه المرء بكامل وجوده خالصاً لوجه الله تعالى ، والعبد المقبول عند الله الذي يكون قد وجد الله بحيث يستقر الله في أعماق وجوده بأكمله ويصير جزءاً عميقاً لا يتجزأ من وعيه وشعوره، ولا تغيب فكرته في أي وقتٍ عن ذاكرته ومخيلته ، والذي يصبح الله المالك المتصرف في مكاسبه وثرواته، والمهيمن على مسلكه وتصرفاته، فالإنسان المؤمن هو الذي يتمسك بالله ربه بأقصى قوته حتى لا ينفلت حبله تعالى من يده، مهما اشتدت وطأة الظروف والأوضاع ، وتفاقم ظلام الحوادث ، والحقيقة هي أن حق الله جل شأنه إنما يتم تأديته عن طريق طاعته الكاملة والولاء الصادق له، وليس بمجرد التوجه نحو جهة كذا وكذا، فالإيمان بالله هو أن يتخذ المرء من الله تعالى كل شيء لنفسه .

والإيمان بالآخرة هو أن تصير الآخرة في نظر الإنسان القضية الحياتية الكبرى والأصلية بدلاً من قضايا الدنيا .

والإيمان بالملائكة هو الاعتقاد بوجود أولئك المأمورين الإلهيين الذين يقومون بتدبير شئون الدنيا وفق مشيئة الله العليا .

والإيمان بالكتاب هو أن يُقر المرء بأن الله قد بعث بهديته إلى البشرية جمعاء، ولكي يسعد الإنسان في الدنيا والآخرة لا يسعه إلا أن يقود مسيرة حياته في ضوء هذه الهداية الإلهية .

والإيمان بالنبين هو الاعتراف والتصديق بعباد الله الذين اختارهم الله تعالى لإبلاغ رسالته إلى الناس كافةً .

هذا، وينبغي أن تترسخ هذه المقومات الإيمانية في نفس المرء وتتغلغل فيه بصورة عميقة، حتى يُعطي الإنسان ماله للمحتاجين، ويأخذ بأيدي البائسين والأشقياء من بني جنسه؛ لينقذهم مما هم فيه من تعاسةٍ وسوء حالٍ، بدافع الحب الخالص لله ، ابتغاء

مرضاته تعالى .

إن الصلاة خضوع مطلق أمام الحق سبحانه وتعالى ، وإيتاء الزكاة اعتراف المرء بحصة الله المتفجرة في ثروته المالية ، وإن عبداً كهذا كلما عاهد عهداً فليس من شأنه أن يهيم بنقضه أو إخلافه ، إذ هو يعتقد أن كل عهدٍ إنما هو عهد الله تعالى ، وإن ثقته بالله واعتماده عليه يكون قوياً لدرجة أنه لا يضعف ولا يستكين في مواجهة أية أزمة - مالية كانت أو بدنية - حتى ولو دارت دائرة الحرب ، فهو يظل ثابتاً مستقيماً على سبيل الطاعة والعبودية الإلهية على كل حال وفي كل حين ، والمؤمن الصادق هو الذي تتوافر فيه هذه الصفات العليا ، والمؤمن الصادق إنسان يتميز بحذره البالغ وخوفه الدائم من الله جل شأنه ، وليس المتجرد من تقوى الله وخشيته استناداً إلى أية ركنية أو دعامة باطلة .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ۗ ذَٰلِكَ خَفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٥٧ ﴾

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيٰوةٌ يٰٓأُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٥٨﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٥٩﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴿

كُتِبَ عَلَيْكُمُ: فرض عليكم .

عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ: تُرِكَ لَهُ مِنْ وِلِيِّ الْمَقْتُولِ .

تَرَكَ خَيْرًا: خَلَفَ مَا لَا كَثِيرًا .

الْوَصِيَّةُ: نسخ وجوبها بآية المواريث .

جَنَفًا: ميلاً عن الحق خطأ وجهلاً.

إِثْمًا: ارتكاب للظلم عمداً .

شرع الإسلام مبدأ القصاص بشأن قضية القتل، ومعنى ذلك أن يُعامل القاتل بمثل ما عامل به المقتول ، ولقد تضمن هذا التشريع فائدتين كبيرتين، أولاهما: أن يتم استئصال شأفة جريمة القتل؛ فإن المرء سيرتدع عن إزهاق روح الغير حرصاً على حياته، وبالتالي تصبح حياة الجميع مصونة من البغي والاعتداء، والفائدة الثانية: إخماد عواطف الثأر والانتقام الملتهبة في نفوس ورثة القتيل، حتى لا يندفعوا إلى اتخاذ أية خطوة سلبية جديدة تصيب المجتمع بالخراب والدمار غير أن القصاص في الإسلام ليس بأمرٍ محتومٍ أو إلزامي، بل أمر قابل للتراضي والمصالحة بين الطرفين، فأولياء القتيل إن شاءوا قُتل القاتل، وإن شاءوا أخذوا الدية، وإن شاءوا عفوا عن القاتل عفواً مطلقاً، وإنما الغاية الرئيسية من هذا التخيير أو التخفيف - على حد التعبير القرآني - هي أن يظل المجتمع الإسلامي بحيث يسوده دائماً الشعور بالإخاء والتآلف والمودة بين أفرادهم بعضهم نحو بعضٍ، ولا ينشأ فيه أبداً جو الشحنة والتباغض بين أفرادهم، كما أن مبدأ «الدية» ينطوي على فائدة خاصة وهي أن ورثة القتيل يحصلون عن هذا الطريق على عوضٍ مالي عن فقيد أسرهم .

ومن المشكلات التي تنشأ في إثر وفاة أحدٍ من الناس مشكلة ميراثه الذي يخلفه .. وقد عالج التشريع الإسلامي هذه المشكلة بإقرار مبدأ «المعروف» في توزيع ميراث الميت على أقربائه ، وكأن هذا التوزيع بالمعروف هو تقوى المال، فإذا تم إعطاء كل فردٍ من أقرباء الميت ما يستحقه من تركته، ساد المجتمع كله استقرار شامل؛ لأنه بعد أن نال كل ذي حقي حقه، صار في مأمّنٍ من أي اضطرابٍ ناشئٍ عن تنازع أفراد إحدى الأسر في الاستئثار بما خلفه الميت من مالٍ أو عقارٍ ، وربما يكون أحد أفراد الأسرة غير

مستحق لوراثة الميث من الناحية القانونية، غير أنه يكون مستحقاً لذلك من الناحية الأخلاقية، ففي مثل هذا الوضع ينبغي للميت أن يسد هذا الفراغ بالوصية، (ومما يلاحظ أنه قد اقتصر هنا على الأمر بالوصية طبقاً للمعروف فيما يتصل بالوراثة، في حين تم تحديد حصة كل أحد من الورثة بصورة قانونية محددة في سورة النساء، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٥﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٦﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتَكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

يُطِيقُونَهُ: يستطيعونه، والحكم منسوخ بآية ﴿فَمَن شَهِدَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

تَطَوَّعَ خَيْرًا: زاد في الفدية.

وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ: لتحمداً والله وتثنوا عليه .

الصوم هو تربية عملية لشيئين اثنين في آنٍ واحد، أولهما: الشكر، والثاني: التقوى، فالطعام والماء نعمتان عظيمتان من نعم الله سبحانه وتعالى، غير أن المرء لا يعرف قدر هاتين النعمتين حق قدرهما في الظروف العادية، أما في حالة الصيام، إذ يمسك المرء نفسه عن تناول الماء والطعام طوال النهار، حتى يبلغ منه الجوع والعطش كل مبلغ، ثم يتناولها عقب غروب الشمس، ففي تلك اللحظة يشعر المرء بمدى عظمة هذه النعم

الإلهية المتمثلة في الطعام والشراب ، وهذه التجربة تملأ كيانه الداخلي كله بمشاعر فياضة من الامتنان والشكر لربه المنعم الوهاب .

كما أن الصوم - من جانبٍ آخر - تهيئة للإنسان لممارسة التقوى ، وما هي التقوى؟ إن التقوى هي أن يجتنب الإنسان محارم الله تعالى في سائر مجالات الحياة الدنيا، بحيث يظل دائماً بعيداً عن كل ما نهى الله عنه، ولا يفعل إلا ما أمر الله به أن يفعل؛ وإذا اكتفى الإنسان فعلاً في أيام الصوم، بتناول الطعام في آناء الليل فقط، ويكف عن الأكل والشرب في أوقات النهار، فكأنه يتلقى بذلك تدريباً عملياً على اتخاذ الله عز وجل رقيباً ومهيماً على نفسه ، والحقيقة أن حياة الإنسان المؤمن بأكملها نوع من الحياة الصائمة المتواصلة، إن تكليف المرء في شهر رمضان بالامتناع عن بعض الأشياء المعينة لفترة محددة، إنما يستهدف تربيته وترويضه على أن يمتنع ويتخلى في حياته كلها عن جميع تلك الأشياء التي هي مبعوضة عند الله ربه .

والقرآن هو إنعام الله على عبده، أما الصوم فاعتراف عملي من قبل العبد بهذا الإنعام الإلهي العظيم ، وعن طريق عبادة الصوم يجعل العبد من نفسه أهلاً للقيام بواجب الشكر لله تعالى، كما يكتسب أيضاً الاستعداد العملي لممارسة حياة التقوى والعفاف وفق المنهج الرباني الذي رسم القرآن حدوده وأبعاده وأوضح معالمه .

ومن آثار الصوم أنه يلين القلوب ويزيدها رقةً وخشوعاً وانكساراً، وهو بذلك يجعل المرء مستعداً لكي يستشعر تلك الكيفيات السامية التي يطلبها الله تعالى من عباده، والصوم رياضة شاقة تؤهل المرء لكي يمتلئ صدره شوقاً وتلهفاً لتأدية شكر الله، ويهتز كيانه النفسي من خشية الله وجلاله، وعندما يبلغ المرء هذه الحالة النفسية، فحينئذٍ فقط يمكنه أن يشكر الله على نعمه الوفيرة شكراً تمتزج به نبضات قلبه، وأن يمر بتجربة التقوى، تلك التي يقشع لها جلده، وأن يُدرك العظمة الإلهية بصورة يتضاءل أمامها وجوده إلى أقصى الحدود.

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَلِإِنِّي قَرِيبٌ ۗ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۗ ۝

فَلَيْسَتْ جِبُوبًا لِي وَلِيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿٣٧٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ ۗ فَالْعَنَ بَشِيرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۗ ثُمَّ أَتِمُوا الصِّيَامَ إِلَىٰ اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ ۚ وَأَنْتُمْ عَنْكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ۗ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِّلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٣٧٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَىٰ الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣٧٨﴾

الرَّفَثُ: الوقاع .

هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ: سكن أو ستر لكم عن الحرام .

حُدُودُ اللَّهِ: منهياته ومحرماته .

وَتُدْلُوا بِهَا: تلقوا بالخصومة فيها ظلماً وباطلاً .

إن الصوم ممارسة عملية للصبر، والصبر يعني تحمل الصعاب والشدائد في سبيل الامتثال لأوامر الله تعالى، ويزيد الإنسان تقرباً إلى الله تعالى، وتفيض من لسانه كلمات القبول عند الحق سبحانه وتعالى، ولا يظفر بالله جل شأنه إلا الذي يُسلم نفسه لله عز وجل، وإنما تصل إلى الله تبارك وتعالى كلمات شخصٍ قد وصل أوتار قلبه بالحقيقة الإلهية.

وشريعة الإسلام شريعة فطرية، ولذا فهي لا تُلزم المرء بقيود أو التزاماتٍ لا تتفق وفطرته الإنسانية ، ويدخل في هذا الإطار إباحة الاتصال الجنسي في ليالي الصوم وحظره في أوقات النهار، وجعل المشاهدة العامة هي القاعدة بخصوص معرفة مواعيد

السحور والإفطار بدلاً من فرض الاعتدال على التقاويم ، ولقد أوضح الله تعالى معالم دينه الرئيسية وأبرز حدوده العامة، ثم أتاح للإنسان بعد ذلك حرية التصرف والاختيار في مجال الأمور الفرعية، فينبغي للإنسان ألا يتخطى هذه الحدود الإلهية، وأن يتخذ بإزاء الجزئيات - أو الفروع التفصيلية - موقفاً يتفق مع روح التقوى والخشية من الله تعالى، وإن تعقّب أحكام الصوم في هذا المقام بالنهي عن « أكل الأموال بغير حق » يقودنا إلى اكتناه حقيقة الصيام وجوهره لأن الغاية الأصلية من الصوم هي تأهيل الإنسان للقيام بطاعة الله وتنفيذ أوامره على كل حال وفي كل حين ، فيمسك نفسه عن كل شيء ينهى الله عنه، حتى ولو كان من جملة المباحات، كما يكون في الصوم، إذن فإن الشخص الذي امتنع عن تناول الكسب الحلال، نزولاً على الأمر الإلهي، كيف يمكن ألا يمسك نفسه عن الكسب الحرام إذعائاً لأمر الله ذاته؟!!

إن حياة المؤمن نوع من الحياة الصائمة المتصلة، فعمره كله مؤزّع بين « الإفطار الدائم » ببعض الأشياء وبين « الصوم الدائم » عن بعض الأشياء الأخرى، وشهر رمضان ليس إلا فترة التربية لذلك ، والدرس الذي يتلقاه الإنسان من خلال رياضة الصوم الشاقة وحياته المنضبطة، يتلخص في أن العابد الحقيقي لله تعالى إنما هو الإنسان الذي يعبد الله عز وجل، ولا يدعو الله إلا الذي يتقرب منه جل شأنه بالتضحيات .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١١٨﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۗ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقْتَلُوا فِيهِ ۗ فَإِن قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكٰفِرِينَ ﴿١١٩﴾ فَإِن أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَقَتَلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِئْتَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴿

تَقَفْتُمُوهُمْ: وجدتموهم وأدرکتموهم .

وَالْفِئْتَةُ: الشرك بالله وهم في الحرم .

عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ: في الحرم كله .

إن ظاهرة ازدياد القمر وانتقاصه هي لمعرفة الأوقات والتواريخ، وليست - كما يزعم المخرفون وعباد الأوهام من الناس - لأن ليالي ازدياد القمر هي ذوات بركة وليالي انتقاصه نحسات ، لا ، بل إنها هو تقويم الطبيعة يظهر في السماء لكيما يقرر الناس في ضوئه أنظمة لعبادتهم وشئونهم الحياتية الأخرى ، وهكذا كثير من الناس يزعمون بعض الرسوم الشكلية تدنياً ، كما كان العرب في الجاهلية إذا أحرموا للحج وخرجوا من بيوتهم مرة لم يدخلوها ثانياً من أبوابها، بل تسوروا الحائط من ظهر البيت، ثم دخلوا فناءه؛ وذلك بناءً على اعتقادهم بأنه بعد تمام إحرام المرء للحج لا ينبغي أن يحول بينه وبين السماء شيء، فإن ذلك مناقض لأداب الإحرام ، غير أن التدين ليس علماً على مثل هذه الآداب الشكلية، إنما التدين هو أن يخشى المرء من الله تبارك وتعالى، ويلتزم بحدوده المقررة في حياته العملية . والمؤمن مطالب بأن يكون مجاهداً لأجل الدين، بجانب كونه متبعاً وممارساً لأحكام الدين وإن الجهاد الذي ورد ذكره في هذا المقام هو الجهاد الذي وقع في زمن رسول الله ﷺ حيث فقد مشركو العرب حق الحياة نتيجة لإنكارهم للدعوة النبوية بالرغم من إتمام الحجة عليهم ، هذا بالإضافة إلى مبادرتهم الفعلية باستخدام وسائل العنف والقوة ضد أهل الإسلام، مما جعل القيام بالهجوم العسكري ضدهم أمراً لا غضاضة فيه ، ولذا فقد أمر الله المؤمنين بحمل السيف ضدهم . ومعنى قوله : ﴿ وَقَتَلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِئْتَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ أن يتم القضاء النهائي على الشرك في جزيرة العرب، ولا يبقى هناك أي دينٍ آخر غير دين

التوحيد ، ومن خلال تنفيذ هذا الحكم جعل الله تعالى جزيرة العرب مركزاً دائماً للتوحيد .

وأذن لأهل الإيمان بالحرب والقتال في حالة واحدة فحسب؛ وهي عندما يكون الطرف المعارض قد بدأ بالهجوم فعلاً ، ثم إذا تمكن أهل الإيمان من الانتصار والغلبة على العدو بأن يضع العدو سلاحه فلا يؤاخذ ولا يُعاقب على جرائمه السابقة ، وإنما يُعاقب الشخص الذي يرتكب جريمة تقتضي العقوبة والتعذيب، والأمر بالقتل في الظروف العادية ليس كالأمر بالقتل في الظروف الخاصة بالحرب والقتال .

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢١٧﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢١٨﴾ ﴾

وَالْحُرُمَاتُ : ما تجب المحافظة عليه .

التَّهْلُكَةِ : الهلاك بترك الجهاد والإنفاق فيه .

على أن القتال في الأشهر الحرم - وهي : المحرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة - أو عند حدود الحرم المكي هو إثم كبير، غير أن معارضي الإسلام إذا ما انتهكوا هذه الحرمة للقيام بتحركات عدوانية ضدكم، فيحق لكم أيضاً أن تقاوموهم غير مراعين لتلك الحرمات على وجه القصاص ، ولكن ينبغي ألا يدفعكم بغض العدو إلى التجرد عن تقوى الله في معاملته، ولا تبدءوا بانتهاك أية حرمة من عند أنفسكم ، ولا تتخذوا أية خطوة تتجاوز أكثر وأبعد مما يقتضيه الحال ، ولا يظفر بنصرة الله وتأييده إلا من يظل واقفاً عند الحدود الإلهية المقررة وملتزمأ بها حتى في أشد الظروف إثارة واستفزازاً .

ما الفرق بين الظلم والقصاص ؟ الفرق بينهما أن القصاص يكون متساوياً مع

اعتداء الطرف الآخر كما وكيفاً، أما الظلم فهو تجاوز هذه القيود والالتزامات ، وعدم التقيد بها، ولا يجوز لأحد أن يصيب غيره بشيء من الأذى أكثر مما أصابه ، وليس من التقوى في شيء أن يقابل الرجل كلمة نصيحٍ وُجَّهت إليه فسأته بتوجيه الشتائم إلى الناصح والاستهزاء به؛ أو أن يستخدم العنف والقوة، رداً على لذعة من لذعات اللسان والقلم، وكذلك التسبب في الخسائر البدنية والروحية مقابل الخسائر المالية، والجروح الأكبر حجماً وخطورة مقابل الجروح الأقل خطورةً، وإزهاق نفوسٍ كثيرةٍ مقابل نفسٍ واحدةٍ؛ كل ذلك مما يدخل في إطار الظلم، وإذا كان المسلم قد أبيع له القصاص، فإن الظلم غير مباح له ألبتة في حالٍ من الأحوال .

إن الشيء الذي يتطلبه الكفاح في سبيل الله أكثر من كل ما سواه هو «المال»، ومما لا شك فيه أن التضحية بالمال أصعب وأشق ما يكون على الإنسان ، ومن هنا فقد أمر الله المسلمين أن يهتموا بعمل الله اهتمامهم بأعمالهم الذاتية، وأن يُكثروا من البذل والإنفاق في سبيله، حتى يستطيعوا إنجاز هذه المهمة الإلهية في أحسن صورة.

والمراد بقوله : ﴿ وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ هو البخل ، أي لا ينبغي أن تمسكوا بأيديكم عن النفقة في سبيل الله تعالى ، فإن الشعور بالحرج وضيق النفس في الإنفاق مستلزم لهلاك الدنيا والآخرة معاً ، وقد يحسب الإنسان أن بذل المال مما يؤدي به إلى الهلاك ، أما الحقيقة فهو أن عدم الإنفاق في سبيل الله هو الهلاك بعينه؛ لأن الإنسان إذا امتنع عن تفويض ما عنده إلى الله عز وجل، لم يستحق أن يُحوّله الله تعالى شيئاً مما عنده، وذلك هو الخسران المبين .

الإنسان الذي لا يرى وجهاً لاستخدام ثروته عدا حاجات نفسه أو حاجات أهله وعياله، يعده القرآن إنساناً هالكاً، وبدلاً من ذلك يؤكد القرآن الكريم أن الوجه الصحيح لاستخدام الثروة هو صرف القسط الأوفر منها في مقتضيات الدين ، إن بذل المال في تحقيق الطموحات والرغبات الذاتية فحسب مما يستوجب الغضب الإلهي تلى

الفرد والمجتمع، وعلى العكس. من ذلك فإن المال إذا تم إنفاقه في سبيل دين الله تعالى، استحق الفرد والمجتمع كلاهما نعمة الله ورحمته؛ والباذل يعود عليه بذله بما لا يُحصى من فوائد دنيوية أيضاً بالإضافة إلى فوزه بثواب الله في الآخرة.

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أُمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامًا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ ۚ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٦٤﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۚ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٥﴾ ﴾

أُحْصِرْتُمْ: منعتم عن الإتمام بعد الإحرام.

فَمَا اسْتَيْسَرَ: فعليكم ما تيسر وتسهل.

مِنَ الْهَدْيِ: مما يُهدى إلى البيت من الأنعام.

وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ: لا تحلوا من إحرامكم بالحلقة.

يَبْلُغُ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ: مكان وجوب ذبحه (الحرم) أو حيث أحصرتكم (حلالاً أو حرماً)

فَفِدْيَةٌ: فعلية إذا حلق فدية.

نُسُكٍ: ذبيحة، والمراد هنا شاة.

مِنَ الْهَدْيِ: هو هدي المتمتع

فَرَضَ: ألزم نفسه بالإحرام .

فَلَا رَفَثَ: فلا وقاع ، أو لا إفحاش في القول . وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ: لا خصام ولا ممارسة ولا ملاحاة فيه .

مع أن عرب الجاهلية أيضاً كانوا يبارسون الحج، ولكن الحج عندهم كان بمثابة طقسٍ قوميٍّ أو موسمٍ تجاريٍّ، وليس بعبادة الله الواحد إلا أن العبادة - سواء كانت الحج أو العمرة أو ما عدهما من العبادات - لا تكون لها قيمة إلا إذا أُدِّيت خالصةً لوجه الله سبحانه وتعالى، وإن الإنسان الذي يكون عابداً لله في حياته اليومية، حين يقوم لتأدية عبادة الله تعالى، فإن كيانه النفسي كله يتركز عليها؛ فهو يمارس إذا عبادةً تكون في ظاهر أمرها مجموعةً مؤلفةً من عددٍ من الآداب والمناسك، إلا أنها من حيث جوهرها وحقيقتها الداخلية تمثل جعل العبد نفسه أمام الله عز وجل، ذلك العبد الذي يخشى الله تعالى حق خشيته، والذي تصبح قضية الحساب والمواخظة في عالم الآخرة هي القضية الكبرى في حياته الدنيا.

إن المؤمن هو الإنسان الذي لا يعيش لأجل الشهوة والذي يجتنب معصية الله في كل شئونه، ويظل بعيداً عن الخصومات والمنازعات في مجال الحياة الاجتماعية، وبما أن رحلة الحج هي فرصة ملائمة جداً لتربية هذه الصفات الخلقية، تم فيها التأكيد على ذلك بصفةٍ خاصةٍ، وبما أن الحج رحلة، فيتركز كل اهتمام الناس أو جُلِّه على أخذ أهبة السفر وزاد الطريق فقط بينما التقوى أفضل وأعظم ما يتخذ منه مسافر الله زاداً، ولا يمكن أن تتحد مشاعر الرجلين الداخلية خلال السفر، فيما إذا كان أحدهما قد خرج أخذاً معه كل ما يحتاج إليه في سفره من عُدّةٍ ومتاعٍ وكفى، وأما الآخر فقد خرج ورأس ماله هو تقوى الله وصدق التوجه إليه جل شأنه .

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا لِئَلَّا تَكُونُوا مِنَ الْكٰفِرِيْنَ﴾ يتضمن الإشارة إلى أن التقوى شيء له علاقة بالعقل، فالتقوى إذاً ليست علماً على سميت أو مظهرٍ خارجيٍّ، إنما هي حالة

تعتري العقل أو الوعي وتسري فيه ، إن الإنسان حينما يظفر بالله ربه على مستوى الوعي والشعور، فإن ذهنه لا يلبث أن يمتلئ بجلال الله وروعته جل وعلا .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَانَكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٦﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٨﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٩﴾ وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

جُنَاحٌ: إثم وجرح .

فَضْلًا: رزقا بالتجارة والإكتساب في الحج .

أَفَضْتُمْ: دفعتم أنفسكم بكثرة وسرتم .

الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ: مزدلفة كلها أو جبل قُزَح .

مَنَاسِكَكُمْ: عباداتكم .

مِنْ خَلْقٍ: نصيب من الخير أو قدر .

فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً: النعمة والعافية والتوفيق .

وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً: الرحمة والإحسان والنجاة .

إن التقوى هي الأصل والجوهر، فإذا كانت هذه الحالة المطلوبة تتوافر في نفس أحد من الناس فلا يضيره معها شيئاً أن يشتغل بالتجارة وكسب المعاش خلال أيام الحج، أو أن يحدث تقديم أو تأخير في تأديته لبعض مناسك الحج، والجو الذي ينبغي أن يكون سائداً في أثناء الحج، هو جو الخشية الإلهية، وذكر الله، والشكر على آلاء الله ونعمه، ومشاعر الخضوع والاستسلام لله تبارك وتعالى، ولا ينبغي أن يصدر خلال الحج أي عمل يناقض هذه الكيفيات السامية، وعلى سبيل المثال: تميّز بعض الأفراد أو الجماعات عن الآخرين في أسلوب تأدية العبادة، وذكر محامد الآباء والأجداد، وهو نوع من إظهار الذات وتمجيدها بصورة غير مباشرة، إن هذه الأشياء وأمثالها غريبة كل الغرابة ومبتوتة الصلة عن عبادة الحج، التي تؤكد مبدأ المساواة بين بني البشر جميعاً أمام رب العالمين، والتي يتم فيها إعلان أن العظمة والكبرياء كلها إنها هي لله تبارك وتعالى وحده، فإذا انقضت أيام الحج دون أن يتلقى المرء فيها التربية الفعلية لهذه الأمور، فهيات أن يتسنى له القيام بها في الفترة الباقية من عمره .

إن الأدعية، ولا سيما أدعية الحج، هي تعبير أو إظهار لحالة المرء الداخلية، فإن كان أحد الناس يعيش في هذه الدنيا، وقلبه مليء بروائع الآخرة، فإن الأدعية التي تفيض وتتدفق من باطنه في مواقف الحج، ستكون بالطبع منصبةً على الآخرة، وعلى العكس من ذلك فإن الشخص الذي تكون الدنيا وزيتها قد أخذت من قلبه كل مأخذ، وصارت هي أكبر همه في الحياة، فسيكون المتاع الدنيوي أول وأكثر ما يطلبه من ربه في مناسبة الحج أيضاً، وأفضل الدعاء أن يدعوا الإنسان ربه قائلاً: «يا رب! أعطني في الدنيا ما تراه أنت خيراً لدنياي، وأعطني في الآخرة ما تراه أنت خيراً لآخرتي، ونجني من سخطك وعذابك!». .

﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ﴿٢٢٢﴾ هذا هو أكبر درسٍ يتلقاه الإنسان من خلال الحج؛ والذي يتم إنقاؤه في ميدان عرفات حيث يجتمع ملايين البشر من كل أنحاء العالم في وقتٍ واحدٍ.. إن اجتماع عرفات هو تمثيل لاجتماع يوم القيامة .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿١١٦﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿١١٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۖ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَيْسَ الْمِهَادُ ﴿١١٨﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿١١٩﴾ ﴾

أَلَدُّ الْخِصَامِ: شديد المخاصمة في الباطل .

الْحَرْثُ: الزرع .

أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ: حملته الأنفة والحمية عليه .

فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ: كافيه جزاء نار جهنم .

وَلَيْسَ الْمِهَادُ: لبس الفراش والمضجع جهنم .

يَشْرِي نَفْسَهُ: يبيعهما يبذلها طاعة الله .

الناس دائماً يُعجبون بكلام رجل يتخذ من المصلحة دينه؛ ذلك لأنه يتحدث إلى الناس بالحبب إلى نفوسهم، وليس بالحق وما هو غير الحق، وبما أنه لا يستند في قوله وفعله إلى أي مقياسٍ مستقل دائم، فهو يختار في كل مناسبة أسلوباً يؤثر على مخاطبه ويتفق مع هواه، ويتغير المخاطب والمناسبة، تتغير أساليب كلامه، الأمر الذي يجعله يتكلم بأحاديث شاقية معسولة من لسانه، ولو كان قلبه خالياً كل الخلو من أية عاطفة إنسانية صادقة، وولاء حقيقي للحق، دون أن يشعر بوخزة ضمير أو تأنيب نفس .

وما هو السبب في أن رجلاً كهذا يبدو «مصلحاً» فيما إذا كان على مسرح الكلام والحديث، في حين أن تصرفاته في ميدان الحياة العملية إنما تكون باعثة على الفساد لا على الإصلاح؟! السبب في ذلك هو التناقض الذي يعيشه، إن النتائج العملية تتمخض دائماً عن العمل دون الألفاظ، فعلى أنه يتفوه من لسانه بكلمات تشهد بغيرته

الشديدة على الحق وفنائه في سبيله، غير أن عمله يكون دائماً تبعاً لمصلحته الذاتية وحدها، ومن ثم ينشأ تضاد أو تناقص بين قوله وفعله، فما إن ينصرف عن مكان القول، ويتجه إلى مكان العمل، حتى تضطره دواعي مصلحته إلى اتخاذ خطواتٍ وتحركاتٍ لا تُنتج إلا الخراب والدمار، فيستغل الآخرين لأجل منافعه الذاتية، وهو يُخدِّر الناس بأحاديث عاطفية مثيرة للحصول على الشعبية والحظوة لدى الجماهير، ولا يجد غضاضة في أن يقيم صرح قيادته على حساب الصالح العام للأمة، ويمارس سياسة التخريب؛ إذ هي تمكنه من أن يستتبع جمعاً غفيرةً من العوام السذج بسهولة، إن هذا الصنف من الناس باعوا حياتهم مقابل منافع الدنيا ومصالحها، فهم لا يتلقون الحق بالقبول، ولو ظهر الحق أمامهم بصورة واضحة جلية؛ لأنهم يرون ذلك مما يؤدي إلى تقليص ظلهم وإسقاط اعتبارهم ومكانتهم، ولذلك يسلكون في الحياة مسلكاً مزدوجاً: يتحدثون بكلامٍ لينٍ معسولٍ ولكن تحتفي وراءه مشاعر الكبر والنزور السلبية التي تحول دون انقيادهم الفعلي للداعي إلى الحق الذي يعدونه حقيراً ضئيل الشأن بإزاء نفوسهم.

وثمة صنف آخر من الناس، وهو الذي يبيع حياته مقابل مرضاة الله سبحانه وتعالى، والذي يتناول كلمة الله بالقبول متخلياً عن كل عاداته وأفكاره الذاتية، والذي يرضى بأن يصير فقيراً عاطلاً عن المال، مضحياً بهاله كله في سبيل الله جل شأنه، والذي يفضل دين الله الخالص على الدين التقليدي الرائج؛ ولو تسبب ذلك في حرمانه من كل حظوة ومكانة لدى عامة الناس، ويتخذ شعاره دائماً من إعلان الحق بدلاً من عبادة المصلحة والمنفعة، ولو صار عُرضةً لعتاب الناس ومقتهم نتيجةً لموقفه ذلك.

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ

الْغَمَامِ وَالْمَلَأْتِكُمْ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تَرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١٩﴾ سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ  
 آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ  
 الْعِقَابِ ﴿١٢٠﴾ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَخَّرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۗ وَالَّذِينَ  
 اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٢١﴾ ﴿١٢٠﴾

فِي السُّلْمِ كَافَّةً: فِي الْإِسْلَامِ وَشَرَائِعِهِ كُلِّهَا.

خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ: طُرُقُهُ وَآثَارُهُ وَأَعْمَالُهُ.

زَلَلْتُمْ: مَلْتُمْ وَضَلَلْتُمْ عَنِ الْحَقِّ .

ظَلَّلِي مِّنَ الْغَمَامِ: طَاقَاتٍ مِنَ السَّحَابِ الْأَبْيَضِ الرَّقِيقِ .

بِغَيْرِ حِسَابٍ: بِلَا نِهَآيَةٍ لِّمَا يَعْطَاهُ ، أَوْ بِلَا تَقْتِيرٍ .

اختيار الإسلام كدين يتخذ إحدى صورتين: أولاهما: أن يتم اختياره بناءً على كامل الإخلاص وصدق النية، ودون مراعاة لأية مصلحة أو تحفظ، فيفعل ما يأمر الإسلام بفعله، ويترك ما يأمر بتركه، ومثل هذا الموقف هو الذي يمثل دخول أي إنسان في دين الإسلام بكلية، وأما الصورة الثانية فهي: أن يختار المرء من الإسلام القدر الذي لا يتعارض مع حياته العملية، فيؤمن ببعض الإسلام لأنه يراه نافعاً أو - على الأقل - غير ضار له، ويدع البعض الآخر لأنه مما يمس ويصدم عقائده وعاداته المحببة إليه، ومنافعه الدنيوية.. إلخ، وقد يدخل المرء في دائرة الإسلام بدايةً بتام رغبته وصميم إرادته، ولكن سرعان ما تزل قدمه عن الجادة، عندما يأتي الوقت الذي يفرض عليه أن يختار أحد أمرين لا ثالث لهما: إما أن يُحطَّم شاكلته الفكرية، وإما أن يناصر الإسلام، بغض النظر عن منفعة الذاتية، فإنه يستند إذ ذاك إلى إسلام من شأنه أن يضمن له الأمرين معاً، حيث لا تتهدد منافعه الذاتية، ولا يُحرم أيضاً من شرف الانتساب إلى دين الإسلام!

وإذا كان هؤلاء يريدون دلائل تشهد بصدق رسالة الإسلام، فقد قدمت دلائل قاطعة على أكمل ما يكون، وأما إذا كانوا يريدون الخوارق والمعجزات، فإن الذين لم يقتنعوا بالحجج والبراهين الساطعة، لن تنفع المعجزات والخوارق شيئاً في إقناعهم، والشيء الأخير الذي يبقى بعد ذلك هو أن يظهر الله مع ملائكته عياناً، غير أنه حينما يحدث ذلك فلن يجدي عن أحد شيئاً؛ لأنه وقت القضاء النهائي، وليس وقت العمل، وإنما يتمثل امتحان الإنسان في الدنيا، بأن يؤمن بالغيب على أساس من الدلائل وحدها، فإنه إن آمن بعد أن شاهد الحقيقة العليا بعينه، إذا فلا عبرة بإيمان ذلك.

إن المخلصين الذين يختارون الإسلام، بغض النظر عن كل المصالح، والانتهازيين الذين يدخلون في الإسلام على أساس المصالح، ربما تكون ظروف أحد هذين الفريقين المادية في الحياة مختلفة عن الآخر اختلافاً كبيراً، ففي الوقت الذي يصبح فيه الفريق الأول عاطلاً عن كل شيء ذي أهمية دنيوية، يتجمع فيه حول الفريق الثاني كل أنواع السعادة والرفاهية المادية، مما يجعله يزعم أنه أعظم شأنًا وأرفع منزلةً من الفريق الأول، فيحتقره ويستخف به، غير أن هذه الظاهرة مؤقتة وليست دائمة، فما إن يتم وضع نظام جديد أفضل، بعد تمام تحطيم هذه الدنيا الحالية، حتى تنقلب الموازين كلها، فسوف يصير كبار اليوم هناك أذلاء صاغرين، وأما الذين يُعتبرون اليوم صغاراً ضئيلي الشأن فسيكونون هناك على قمة المجد والشرف.

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اختلفُوا فِيهِ وَمَا اختلف فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اختلفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٣٠﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلُّوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهُ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ

بَغْيًا بَيْنَهُمْ: حسداً بينهم وظلماً لتكالبهم على الدنيا .

مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا: حال الذين مضوا من المؤمنين .

الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ: البؤس والفقر، والسقم والألم .

وَزُلْزِلُوا: أزعجوا إزعاجاً شديداً بالبلايا .

إن الاختلاف في الدين يرجع إلى الاختلاف في تفسير الدين وشرح حقائقه، إذ يحدث أن يكون كل إنسان مفهوماً خاصاً عن دين الله طبقاً لاتجاهه الفكري، الأمر الذي يؤدي إلى تباين آراء الناس وتعدد مذاهبهم، مع اتفاقهم على الإيمان بكتاب واحد مصدراً للهداية والإرشاد، وعندئذ يبعث الله تعالى أحد عباده المصطفين ليقوم بإعلان الأمر الحق، على أن هذا الصوت يكون صوتاً بشرياً في ظاهره، كما أن الذي يرفع به عقيرته يكون رجلاً كالرجال العاديين، غير أن الباحثين الصادقين عن الحق، سرعان ما يعرفون الصدى الإلهي الذي يتجاوب مع صوته، فيبادرون بتلبية نداءه، ناسين كل اختلافاتهم النظرية، ومن جانب آخر توجد هناك طائفة ثانية من الناس، وهي التي يكون ارتباط أفرادها بدينهم المزعوم قد بلغ من الشدة حد التعصب، حيث لا يبقى معه لديهم أي استعداد لقبول أمر يُعرض عليهم من غيرهم، وبالتالي تستيقظ فيهم نفسية العناد والمكابرة، مما يدفعهم إلى اتخاذ موقف الجحود والإنكار حتى بإزاء شيء كانوا يعدون أنفسهم من حملة لوائه والقائمين بنصرته .

ما الذي يمنع المرء من القيام بنصرة الحق، فيما لو ظهر الحق أمامه مدعماً بدلائل باهرة وبراهين ساطعة؟! إنما يمنعه من ذلك دائماً ما قد يلوح له أن نصرة الحق ستهدم صرح آماله وأمنيته، وتبدد شمل مصالحه ومنافعه، وتعرض حياته السعيدة للخطر، وتقضي على ما يتمتع به من اعتبار ومكانة لدى الناس، غير أن هذا هو الشيء الذي يطلبه الله جل شأنه من عباده الأوفياء، إن الطريق الذي يتحاشى الإنسان سلوكه نظراً لما فيه من عقبات وصعوبات، إنما هو ذلك الطريق بعينه الذي سيؤدي بسالكه إلى

الجنة، فإذا أراد المرء أن ينتزع وجوده من قوالب الفكر والعمل التي كانت محببة إليه من قبل، ليصوغه من جديد في قالب الهدي الإلهي، أُصيب كيانه كله بهزة عنيفة جداً، ويزيدها عنفاً وشدةً أن يقوم المرء داعياً إلى دين الله الحق، ذلك لأن القيام بعمل الدعوة يعني القيام بتوجيه النصيحة والنقد إلى الآخرين، وإن استماع النقد والنصيحة أبغض الأمور إلى الإنسان في كل العصور والأزمان، مما يؤدي إلى حدوث رد فعلٍ شديد من جهة المدعو، لا تقل شدته وخطورته عن زلزالٍ رهيبٍ بالنسبة لشخصية الداعي.

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

كُرْهُ لَكُمْ: مكروه لكم .

ربما يحسب الإنسان أن خير وجهٍ يستخدم فيه نفسه وماله إنما هو زوجته وأولاده، ومن ثم فهو يرى أن سعادته في بذل كل ما يملك من مواهب وثرواتٍ في تحقيق أمانيه وطموحاته الذاتية وحدها، وأما الشريعة فهي - على العكس من ذلك تماماً - تأمر بأن يصرف الإنسان حياته وما عنده من مالٍ في سبيل الله سبحانه وتعالى، ويُلاحظ أن هذين المصرفين يختلف أحدهما عن الآخر اختلافاً جوهرياً، فالأول هو إنفاق على الذات، وأما الثاني فهو إنفاق على الغير، وأن الغاية من صرف القوى والمواهب - طبقاً لوجهة النظر الأولى - هي الحصول على مظاهر الدنيا وأشياؤها الظاهرية، إلا أن الغاية من البذل والإنفاق - طبقاً لوجهة النظر الثانية - هي الظفر بأشياءٍ غير مادية في إلعالم الآخرة .. ولكن الشيء الذي يكرهه الإنسان ويتحاشاه هو عند الله خير بعينه؛ ذلك لأنه مما ينفع الإنسان في حياته القادمة الأوسع مدىً، والشيء الذي يجبه الإنسان ويتوق إليه هو عند الله شر بعينه؛ لأن كل ما فيه من منفعةٍ منحصرةً في نطاق هذه الدنيا

الفانية وحدها، ولا يعود ذلك على أحد بأية فائدة في الآخرة، هذا المبدأ نفسه ينطبق على كل شأنٍ من شؤون الحياة، حيث إن المرء تُعجبه حياة متحررة طليقة من كل قيد، في حين سعادته الحقيقية تكون في أن يشد نفسه بحبل الله ويتقيد بحدوده عز وجل، وإن المرء يتخذ صديقاً يُثني عليه ويكيل له المدح جزافاً، في حين تكون الأجل أن يتخذ صديقاً يلفت نظره دائماً إلى عيوبه وأخطائه، وقد يقف المرء موقف الجحود والإنكار نحو حقٍ ما، ثم يطير فرحاً ظناً منه أنه قد تمكن بذلك من الحفاظ على سمعته ومكانته عند الناس، في حين كان خيراً له أن يعترف بالحق بقلبٍ مفتوح وصدورٍ رحبٍ، برغم ما فيه من تعرض سمعته واعتباره الشخصي للخطر، وإن المرء يظل غافلاً أو متغافلاً عن دينٍ يتطلب الكفاح والتضحية، وإنما يتلقى بالقبول ديناً من شأنه أن يضمن له الجنة بناءً على أمور عادية وتافهة جداً، والأجدر أن يختار لنفسه دين التضحية والكفاح، وإن المرء ليهتم غاية الاهتمام بقضايا «الحياة»، أما العاقل الحصيف فهو الذي يهتم أكثر بقضايا «الموت».

ومعنى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٢٢﴾ أن الذات الإلهية أرفع وأعلى من تلك الدوافع والبواعث السطحية التي طالما تستبد بعقل الإنسان، مما يجعل رأيه متأثراً غير سديد في أغلب الأحيان، فينحاز صوب الاتجاه الخاطيء منحرفاً عن الاتجاه الصحيح، وأما الله سبحانه وتعالى فقضاؤه منزه كل النزاهة، فليس من شك في كونه القضاء المبني على الحق، وأما أفضية الإنسان وقراراته فلا تزال محكومةً بألوانٍ من العقد النفسية الكامنة، إذ يكون آراءه تحت التأثير بدوافع خسيصة، ولذا فكثيراً ما تكون آراء الإنسان، أحكامه غير مبنية على الحق، ولا مطابقة للواقع، إذن فليس لكم إلا أن تعتقدوا بأن الذي جاء من عند الله سبحانه وتعالى هو وحده الحق، وأن تتخلوا - بإزاء ذلك - عن كل مزاعمكم وأفكاركم الذاتية .

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ

وَكُفِّرْ بِهِ ۖ وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجَ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ۗ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا ۚ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ ۖ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۗ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

كَبِيرٌ: مُسْتَكْبِرٌ عَظِيمٌ وَزَرَأٌ.

وَالْفِتْنَةُ: الشَّرْكَ وَالْكَفْرُ بِاللَّهِ تَعَالَى.

حَبِطَتْ: فَسَدَتْ وَبَطَلَتْ.

في شهر رجب من العام الثاني للهجرة، حدث اشتباك بين سرية من المسلمين وبين جماعة من مشركي قريش، وقد وقع هذا الحادث في موضع «النخلة» بين مكة والطائف، وقتل فيه رجل من قريش بأيدي المسلمين، وكان ذلك أول يوم من رجب، وكان يظن المسلمون أنه آخر ليلة من جمادى الثانية، ونظراً لأن رجب من الأشهر الحرم، فقد استغل معارضو الإسلام الحادث لتشويه سمعة المسلمين ورسول الله ﷺ استغلالاً مكثفاً، واصفين إياهم بالبعد عن الحق فلا يراعون حرمة الشهر الحرم!! فقيل رداً عليهم: إن القتل أو القتال في الشهر الحرام إثم كبير، ذلك مما لا يتطرق إليه أي شك، غير أن هذا العمل إنما صدر عن جماعة المسلمين بطريق المصادفة وعن غير قصد منهم، في حين أنكم تمارسون باستمرارٍ وبقصدٍ وتصميمٍ من الجرائم والذنوب ما هو أكبر شناعةً من ذلك حيث ارتفع نداء الله تبارك وتعالى بين ظهرانيكم، ولكنكم - مع ذلك - لا تلقون له بالاً، وفوق ذلك تمنعون الآخرين أيضاً عن تلبيته واعتناقه، ولقد بلغ العناد والمكابرة أنكم تصدون عباد الله عن بيت الله، وتكروهونهم على الخروج

من ديارهم ومغادرة أوطانهم، والذين يتقدمون نحو دين الله تزعمونهم وتذيقونهم ألواناً من العذاب والأذى، حتى يرتدوا عن دينهم، وفتنة أحدٍ عن سبيل الله أشنع وأخطر من إزهاق روحه وإنما لجرمة كبيرة عند الله جل شأنه أن يقترف المرء أنواعاً من الذنوب والسيئات الفاحشة إذا وجد غيره قد صدر عنه أي خطأً عادي أخذ في تضخيمه وتشهيره ليشوه سمعته .

إن سلسلة المعارضة والمحن التي تصحب دعوة الحق تؤدي بأهل الإيمان إلى هجرة بيوتهم، كما يُضطرون إلى الجهاد بأنفسهم حتى يثبتوا على الدين، وهذا عمل مهم وإنه لعمل ثنائي الجانب، من شأنه أن يميز العباد الإلهيين من أعداء الله، إذ إن ذلك يكشف - من جهة - عن أولئك الذين ليسوا من عبادة الله في شيء، بل هم عبّاد أنفسهم وشهواتهم، والذين يؤذون عباد الله لأجل منافعهم الذاتية متجردين عن خشية الله، ومن جهةٍ أخرى فإن الحسنات المتمثلة في «الإيمان» و«الهجرة» و«الجهاد» تبرز إلى حيز الوجود الفعلي عبر هذه الواقعة بالذات؛ لأنها تُسفر عن أولئك الذين ظلت ثقتهم بالله حيةً مع قسوة الظروف واشتداد الأزمات، وعن أولئك الذين فقدوا هذه الثقة بالله تعالى ولم يستطيعوا الاحتفاظ بها تحت الظروف القاسية .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ۗ وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٣٧﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٣٨﴾ ۝

وَالْمَيْسِرِ: القمار .

الْعَفْوُ: ما فَضَّلَ عن قدر الحاجة .

لَأَعْتَنُكُمْ: لكلفكم ما يشق عليكم .

في معرض الإجابة عن بعض الأسئلة تم الإرشاد إلى عدة مبادئ أساسية وهي :

أولاً : إذا كان شيء ضرره أعظم من نفعه نسبياً، فهو جدير بالترك .

ثانياً : إن القدر الزائد عن الحاجة من المال ينبغي إنفاقه في سبيل الله سبحانه وتعالى .

ثالثاً : يجب أن تدور المعاملات المشتركة بين الناس في الحياة العامة وفق أساليب مؤدية إلى الإصلاح، بعيداً عن تلك الأساليب التي يمكن أن تسبب في حدوث أي نوع من الشر والفساد في المجتمع .

إن شارب الخمر يجد في شربها النشوة والمتعة النفسية، ولاعب القمار والميسر قد يحصل على ثروة طائلة من غير كد ولا تعب، وبهذا يوجد فيهما جانب من النفع والفائدة بيد أنهما - من ناحية أخرى - يحتويان على أضرار دينية وخلقية، وأن هذه الأضرار تفوق نفعهما، ومن أجل ذلك فرض النهي عنهما .

وينبغي أن تتم معالجة أمور الحياة الأخرى في ضوء المعيار نفسه لأخذ شيء ما أو رفضه، فمثلاً إن كل النشاطات السياسية وغير السياسية، وجميع المناسبات والحفلات الاجتماعية مرفوضة إذا كان الاستعراض الاقتصادي والديني يتكشف عن أضرار أكثر من المنافع .

والإنسان المسلم هو الذي يجعل من الآخرة هدفه في الحياة، والذي يغدو ويروح وقلبه يحترق شوقاً ولهفةً للحصول على رضوان ربه، وبالنسبة لإنسان كهذا فإن متاع الدنيا وأسبابها تكون بمثابة ضرورة الحياة، وليس بمثابة غاية الحياة، مع أنه يسعى جهده ليكتسب المال، ويهتم بشئون الدنيا وأعمالها، ولكن ذلك كله يكون في إطار الحاجة والضرورة، وليس غاية وهدفاً، ومن ثم فإن الشيء الذي يتبقى عنده فوق حاجاته الحقيقية، لا يلبث أن يعطيه في سبيل ربه، رجاء أن يرضى الله عنه، ويدخله في

رحمته ، إذن فإن المقدار الضروري المحتاج إليه يستبقه لنفسه، وأما الزائد عن حاجته فيبذله في وجوه الدين .

﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ۚ وَلَا أُمَّةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَا تُعْجَبْكُمْ ۚ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَا تُعْجَبْكُمْ ۚ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۚ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۚ وَيُبَيِّنُ ۚ ءَايَاتِهِ ۚ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٠٨﴾ وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۚ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ ۚ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِن حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٠٩﴾ نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۚ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّلْقَوَةٌ ۚ وَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٠﴾ ﴾

أذى: قدر يؤذي .

حَرْثٌ لَّكُمْ: مزرع الذرية.

أَنَّىٰ شِئْتُمْ: كيف شئتم ما دام في القُبَل .

إن الغاية الأصلية من اشتراك الرجل والمرأة في الحياة، عن طريق عقد الزوجية ليست بتعاطي الشهوة وإشباع الغريزة الجنسية، بل إنها علاقة هادفة شأنها شأن العلاقة بين الزارع ومزرعته، ومن ثم ينبغي لراغب الزواج أن يكون جاداً في ذلك تماماً كما يكون الزارع جاداً في زرعه، ويجب أن تُراعى الأمور التالية :

أولاً: أن يكون الإيمان العنصر الأول والأساسي الذي يتم عليه اختيار الزوج ، إن علاقة الزوجين علاقة بالغة الخطورة؛ لأنها تنطوي على كثير من الجوانب النفسية والأسرية والاجتماعية المتداخلة بعضها مع بعض، إذن فإن علاقة كهذه لو قامت بين

شخصين مع عدم وجود التوافق العقدي بينهما، فإنها ستكون آخر الأمور مؤديةً إلى الضياع المحتوم لأحد الطرفين؛ فإن زوجاً مؤمناً إذا اتفق مع زوجته غير المؤمنة على «تسوية عقديّة»، توصلاً إلى التفاهم، فمعنى ذلك أنه قد ضيع دينه وخسر عاقبته، وأما إذا لم يرهن بهذه التسوية، فالشقاق والنزاع الناتج عن ذلك سيجعل بيته عرضةً للتصدع أو الانهيار.

ثانياً: أن يكون الاتصال بين الجنسين جارياً وفق أسلوبه الفطري السليم، من خلال التكيف والمطابقة مع تكوين الله تبارك وتعالى؛ إذ إن الفطرة تندرج في إطار الحكم الإلهي، فكما لا بد من الالتزام بأحكام القرآن المتلوة، كذلك لا بد من أن يخضع تصرفنا الجنسي، وغيره من التصرفات العملية الأخرى، لذلك النظام الفطري الذي قرره الله لنا بصفة تكوينية.

ثالثاً: أن تكون مخافة الله وتقواه الصفة الغالبة على الإنسان في كل مرحلة من مراحل حياته، فلا يتخذ أية خطوة عملية إلا ويسبقها طول الأناة والتفكير في أن مرجعه الأخير إلى الله رب العالمين؛ الخبير بكل شيء مهما كان ظاهراً أو خفياً.

ومعنى قوله: ﴿ وَقَدِّمُوا لأنفُسِكُمْ ﴾ أن تقدموا العمل الصالح لآخرتكم، أي ليس لكم أن تحسبوا أي عمل تمارسونه في هذه الحياة، أنه عمل دنيوي محض، ولا أثر له يمتد إلى ما وراء هذه الدنيا المحدودة، بل إن لكل عمل من أعمالكم جانباً أخروياً باقياً، وإنكم ستواجهون حتماً بجانبكم الأخروي هذا بعد الموت، فينبغي أن تكونوا حريصين كل الحرص على أن يُعتبر عملكم في مقياس الآخرة عملاً صالحاً وليس عملاً غير صالح.

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ

بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٢٩﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ  
فَإِنْ فَأَوْ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٠﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٣١﴾  
وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي  
أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا  
إِصْلَاحًا وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ



عُرْضَةٌ لِأَيِّمَانِكُمْ: مانعا عن الخير لحلفكم به على تركه .

بِاللَّغْوِ فِي أَيِّمَانِكُمْ: هو أن يحلف على الشيء معتقدا صدقه والأمر بخلافه ، أو ما  
يجري على اللسان مما لا يقصد به اليمين .

يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ: يخلفون على ترك موافقة زوجاتهم .

تَرَبُّصٌ: انتظار .

فَأَوْ: رجعوا في المدة عما حلفوا عليه .

ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ: حيض ، وقيل أطهار .

وَبُعُولَتُهُنَّ: أزواجهن .

دَرَجَةٌ: منزلة وفضيلة بالرعاية والإنفاق .

ربما يحلف بعض الناس تحت عامل الغضب أو اللجاجة والعناد قائلاً بأنني لن  
أسدي إلى الرجل الفلاني نصحا أو معروفا أبداً ، ولقد كانت عادة الحلف هذه منتشرة  
بين العرب القدامى إذ كانوا كثيراً ما يخلفون على ترك بعض أعمال البر أو الإصلاح بين  
الناس ، ثم إذا دُعوا بعدئذ إلى أي عملٍ من هذا النوع تعللوا بالحلف ، فإذا كان مجرد  
القول بأي لن أفعل كذا وكذا من أعمال الخير قولاً سيئاً يُلام عليه قائله ، فإن توكيده إياه

عن طريق الحلف بالله سبحانه وتعالى مما يزيد سوءاً وشناعة؛ ذلك لأن الله تبارك وتعالى كله رحمة وإحسان وخير وبركة، إذن فكيف يصح للمرء أن يستشهد بالذات الإلهية جل شأنها في امتناعه بنفسه عن ممارسة أعمال الخير والرحمة والإحسان، إن الفساد هو الشر بعينه، أيًا كان حجمه ونوعه؛ غير أن الفساد إذا كان يُمارس باسم الله أو بعنوان الدين الإلهي أصبح شره عندئذٍ مستطيراً، وتفاقم أمره .

وقد يجري القسم على السنة بعض الناس مجرى اللغو؛ فتتخلل كلمات اليمين بالله أحاديثهم، من غير قصد ولا روية، وهذا مما يدخل في إطار اللغو والفضول، وليحذر كل إنسان أن يقع فيه، ومن وقع فيه فليحاول أن يُقلع عنه، وقد جعل مثل هذا اليمين (اللغو).

غير ذي أثرٍ أو مفعولٍ من الناحية الشرعية، فيما يتصل بالعلاقة بين الزوجين، نظراً لخطورة هذه العلاقة، وأما الكلام الذي يتكلمه المرء على أساسٍ من الوعي والتفكير، ويصحبه الإرادة أو النية القلبية؛ فذلك يختلف شأنه كل الاختلاف، فإذا حلف رجل على اعتزال زوجته وعدم الاجتماع بها، بناءً على عزمٍ وتصميمٍ، فالأمر جد لا هزل وفيه أحكام شرعية.

إن لكل شريكٍ في النظام الأسري - سواء كان رجلاً أو امرأة - حقوقاً وعليه واجبات، وينبغي أن يقوم كل فردٍ بأداء واجبه كما يأخذ حقه، فلو اعتدى أحد الأفراد على حقوق غيره، وعامله معاملةً جائرةً، استغلالاً لضعفه، فلن ينجو بنفسه من مؤاخذه الله عز وجل .

﴿ الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ ۖ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ تَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۗ

وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٠٦﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ  
 حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا  
 حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ  
 أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۗ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا  
 لِيَتَّعِدُوا ۗ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۗ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا  
 نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظَمَ بِهِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ  
 وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴿

الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ: التَّطْلِيقَ الرَّجْعِيَّ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ .

تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ: طَلَاقٌ مَعَ أَدَاءِ الْحُقُوقِ وَعَدَمِ الْمَضَارَةِ .

تِلْكَ حُدُودٌ: أَحْكَامُهُ الْمَفْرُوضَةُ .

فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ: شَارَفْنَ انْقِضَاءَ عِدَّتِهِنَّ .

وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا: مَضَارَةً لَهُنَّ .

آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا: سَخْرِيَّةً بِالتَّهَانِ فِي الْمَحَافِظَةِ عَلَيْهَا .

الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ: الْقُرْآنَ وَالسَّنَةَ .

الطلاق حادث غير عادي، يحصل في ظروف استثنائية غير عادية، ولقد أوصى الإسلام بالإحسان في المعاملة والالتزام بتقوى الله عز وجل في هذه القضية العاطفية للغاية.

ويُطالب الإسلام بأن تتم عملية إنهاء علاقة الزوجية تدريجياً في مراحل ثلاث، بدلاً من إنهاؤها مرة واحدة، ولتقرير مثل هذا المنهج الجدّي المتوازن في شأن قضية متناهية في الإثارة كالطلاق، دلالاته الواضحة على ذلك الموقف السلوكي الذي ينبغي أن يتخذه

المؤمن عند نشوء الاختلاف والخصومة ؛ إذ المطلوب من المؤمن أن يكون موقفه تجاه خصمه موقفاً غير عاطفي، مبنياً على طول التأيي والروية، وليس بالموقف العاطفي الذي يظهر فجأةً تحت عوامل الغضب والاستفزاز .

وهكذا جميع الآداب والشروط الأخرى المتصلة بالطلاق، تتضمن كلها دروساً ومعاني عميقة للحياة الإنسانية الفاضلة ، ما تتلخص في أن تُتاح فترة من الزمن ملحوظة لا يزال المرء يفكر فيها في إمكانية إعادة الوفاق والوحدة من جديد بعد تصميمه على المفارق، وألا يُعد انتهاء العلاقات والروابط الشرعية مرادفاً لانتهاء حقوقه الإنسانية، فلا بد من التزام الحدود التي رسمها الله تبارك وتعالى بالنسبة للتصرفات المتبادلة بين الناس التزاماً تاماً، وألا يُلغى حكم من الأحكام الشرعية ببعض الحيل، ولا يسترد الزوج بعد الفراق شيئاً مما كان قد أعطاه لزوجته قبل الفراق، كما ينبغي أن تُقضى أيام الفصل والمفارقة بالمعروف كما قضيت أيام التلاقي والارتباط .

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ \* وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّيَ الرِّضَاعَةَ ۗ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۗ لَا تُضَارُّ وَالِدَةُ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدِهِ ۗ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنِ تَرَاضٍ مِثْمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٢﴾ ﴾

فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ: فلا تمنعهن .

أَزْكَىٰ لَكُمْ: أنمى وأنفع لكم .

وُسَعَهَا : طاقتها وقدر إمكانها .

وَعَلَى الْوَارِثِ : وارث الولد عند عدم الأب .

أَرَادَا فِصَالًا : فطاما للولد قبل الحولين .

طلّق رجل زوجته، ولم يراجعها في زمن العدة، ولما انقضت العدة خطبها مع غيره، فرضيت المرأة بأن تنكح زوجها الأول ثانياً، ولكن أخاها لم يرض بذلك، ومنعها من النكاح، فنزل عندئذ هذا الحكم بأنه إذا كان الاثنان قد اتفقا على إعادة العلاقة الزوجية بينهما من جديد، فلا تضعوا أنتم - أيها الأولياء - أية عرقلة دون ذلك .

وهناك عدد كبير من القضايا ما يزال باقياً على أثر الطلاق في أغلب الأحيان، ومن ذلك إذا رغب الزوج الأول أن يتزوج مطلّقة ثانياً، وتريد المطلقة أن تنكح رجلاً آخر غيره، فلا يجوز لأحد أن يُعرقل الأمور أو يضع العقبات دون تحقيقها، وقد تشور أيضاً مشكلة الرضاعة إذا كانت المطلقة ذات طفلٍ لزوجها السابق، وهنا طالبت الشريعة كلاً من الوالدين بالأيضر أحدهما الآخر، وأمرت بأن تُعالج القضية بكامل الهدوء، وعلى أساس من التشاور والتراضي من الطرفين؛ دون أن تُحول إلى نقطة إثارة للعواطف الكامنة أو الحزازات القلبية الدفينة .

ومن هنا يمكن لنا أن نتبين المنهج الإيماني لتصفية القضايا عند حصول الخلاف والمفارقة، وهذا الأسلوب يتلخص في ألا يتخذ أيّ من الفريقين ما قد بقي من القضايا بجانب خصمه وسيلة للإحراج، بل يجب أن يُوجد حل إيجابي يحقق مصلحة الفريقين، وفي الوقت نفسه يكون جديراً بالقبول لدى كل واحدٍ منهما عن رضاً وطواعية، إن الإيمان زكاة للروح وطهارة لها، فمن كانت روحه قد تزكت وتطهرت بالإيمان، تُري هل يمكنه أن يلجأ إلى أساليب دنسة لمعالجة قضاياها ؟

إن النصيحة لا تقع عند أحد الناس موقع الرضا والقبول بمجرد كونها مبنية على الحق، بل بأن يكون السامع راسخ الإيمان بالله عز وجل، والذي يظن أنه لو استطاع

اليوم أن يجد بعض الألفاظ لكي يرفض بها نصيحة الناصح، فإن القضية سترفع آخر الأمر إلى محكمة الله العادلة، حيث لا يُجدي أي نوع من الجدل أو النقاش اللفظي عن صاحبه شيئاً.

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَتَّبْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ ۗ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۗ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٣٥﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۖ وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَىٰ الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ ۖ وَعَلَىٰ الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ ۖ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ ۚ حَقًّا عَلَىٰ الْحَسَنِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَبِئْسَ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ۗ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۗ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٣٧﴾ ﴾

عَرَّضْتُمْ بِهِ: لاحتتم وأشرتتم به.

أَكْنَنْتُمْ: أسررتتم وأخفيتتم.

لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا: لا تذكروا لهن صريح النكاح.

يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ: ينتهي المفروض من العدة.

فَرِيضَةً: مهرا.

وَمَتَّعُوهُنَّ: اعطوهن ما يتمتعن به.

المُوسِعِ: ذي السعة والغنى .

قَدْرُهُ: قدر إمكانه وطاقته .

المُقْتَرِ: الفقير الضيق الحال .

ما زال يتكرر التأكيد على ضرورة الالتزام بالتقوى والإحسان، خلال الآيات المتعلقة بأحكام الزواج والطلاق، الأمر الذي يدل على أن أيما حكم شرعي لا يمكن أن يتم تنفيذه بصورته الحقيقية المطلوبة، وطبقاً لروحه الأصلية، ما دام أفراد المجتمع يُعامل بعضهم بعضاً معاملةً قانونيةً محضَةً، بل يجب أن تسود فيما بينهما روح التصرف الجميل ، مع العلم بأن سوء التصرف مع الآخر ، إنما تعود عاقبته الوخيمة على أصحابه أنفسهم لا محالة ؛ لأن الأمور والقضايا كلها سوف ترجع آخر الأمر إلى الله عز وجل، حيث لا تُغنى التأويلات اللفظية عن أحدٍ شيئاً ولا يكون هناك بوسع أحدٍ أن يطمس أو يُخفي أية حقيقة من الحقائق المتصلة بالقضية .

يتعين على الزوج، من الناحية القانونية، أن يدفع لزوجته نصف مهرها؛ في حالة ما إذا طلقها قبل المسيس، وكان قد سبق أن حدّد مهراً معيناً لها عند عقد النكاح ، غير أن مقتضى النصح والإحسان يفرض على الزوجين كليهما، أن يُعامل أحدهما الآخر، معاملةً كريمةً سمحةً، بدلاً من حصر المعاملة في إطارها الشرعي المحدود ، فلتُوطّن المرأة نفسها على أن تتنازل عن نصف المهر الآخر، آخذةً في الاعتبار أنه لم يتم أيما اتصالٍ فعليٍّ بين الاثنين! ومن جهةٍ أخرى، ليتسع صدر الرجل بدوره لأن يتقدم لدفع المهر بكامله، مع كونه غير مكلفٍ شرعياً إلا بدفع النصف فقط ، وينبغي أن تكون روح السباحة والتفضل والإحسان هي السارية في كل الأمور والمعاملات في الحياة، والمجتمع الإسلامي هو ذلك المجتمع الذي يعطي أفرادَه قبل أن يأخذوا .

﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ ١٣٥ فَإِنْ خِفْتُمْ

فَرَجَالًا أَوْ زُبَانًا طَبَعُوا عَلَيْهِمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ

﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَتُوفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالمَعْرُوفِ ۗ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٣٨﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣٩﴾

وَالصَّلَاةِ الوُسْطَى: صلاة العصر لمزيد فضلها .

قَانِتِينَ: مطيعين لله خاشعين .

فَرِحَالًا: فصلوا مشاة على أرجلكم .

وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ: مُتْعَةٌ . أو نفقة العدة .

والصلاة بمثابة خلاصة الدين بأكمله؛ لأنها تمثل الصورة المصغرة للحياة الإيمانية، التي إذا امتدت واتسع نطاقها الفعلي تحولت إلى حياة إسلامية كاملة متكاملة، وأهم عناصر الصلاة ثلاثة وهي :

أولاً: الصلاة مفروضة في خمسة أوقات ( في أثناء الليل والنهار) .

ثانياً: الصلاة شيء جدير بالعناية والمحافظة .

ثالثاً: جوهر الصلاة الحقيقي في الذل والاستكانة .

يتضح من قوله : ﴿ حَنْفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ﴾ أن هناك صلاةً متوسطةً وهي محاطة من كلا الجانبين بصلواتٍ عديدةٍ أخرى، وفي هذه الآية لا بد أن يكون تعداد «الصلوات» الجانبية - أي ماعدا الوسطى - أربعةً، ذاك لأن كلمة «الصلوات» في اللغة العربية لا يجوز إطلاقها إلا على ثلاثٍ أو أكثر.. وأن أول عددٍ يمكن أن تتوسط فيه صلاة «واحدة» بين العديد من «الصلوات» هو عدد الأربعة، والمراد من «الصلاة الوسطى» - على حسب ما جاء في الروايات الصحيحة - هي : «صلاة العصر». وللدلالة على العنصر الثاني من الصلاة استعمل لفظ «المحافظة»، وهذا يعني أن الصلاة شيء يتطلب الحفظ والرعاية، كما يحافظ الإنسان على المال، وأن المحافظة على الصلوات تعني : الاهتمام بأدائها في أوقاتها المحددة، ووفقاً لحدودها وآدابها، والابتعاد الإرادى عن كل شيء يُحدث خللاً في الصلاة شكلاً أو كيفيةً.. إلخ.

والعنصر الثالث للصلاة هو الذل والاستكانة، وهو روح الصلاة الأصيل، وإذا كانت الصلاة تعنى مثول العبد بين يدي الله عز وجل، فلا بد أن تطراً على المرء خلال أدائه للصلاة، الكيفيات التي تطراً على «أصغر ما في الوجود، في حالة قيامه أمام أكبر ما في الوجود» .

إن وصف أحكام المعاشرة بكونها ﴿ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ يكشف عن جانبٍ مهمٍ من الشريعة، لأنه إذا كانت ثمة مجموعة من الحقوق المحددة شرعاً، لكي يتخذها الناس أساساً ومرجعاً لما يدور بينهم من أمورٍ ومعاملاتٍ مشتركةٍ - ولكن ذلك ليس كل ما يجب على المرء من حقوقٍ لغيره- فإن هناك مزيداً من الحقوق غير الحقوق الشرعية المعينة، هي الحقوق التي ينبثق شعور المرء بحجمها وضرورة أدائها لأصحابها من امتلاء قلبه بتقوى الله وخشيته تعالى، وكلما تمكنت معاني التقوى من أعماق نفس المرء اشتد إحساسه بحتمية أدائها .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ

مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا  
 يَشْكُرُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٣﴾ مَنْ ذَا  
 الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَمْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ  
 وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١٤﴾

قَرْضًا حَسَنًا: احتسابا به عن طيبة نفس .

يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ: يُضَيِّقُ على بعض ويوسع على آخرين .

قدم المسلمون إلى المدينة مرغمين بعدما ضاقت عليهم أرض مكة بضغوط سكانها  
 الوثنيين، ولأن المدينة تتوافر فيها بيئة حرة تسمح لهم أن يعيشوا وفق عقيدتهم وتعاليم  
 دينهم في أمنٍ وطمأنينة، غير أن معارضي الإسلام لم يدعواهم يطمننون هناك لمدة  
 سيرة من الزمن، إذ أثاروا هجماتٍ عسكرية متوالية ليقتلوا جذورهم من المدينة،  
 وعندئذٍ أمر الله المسلمين أن يقاوموهم .

ولأن أسباب القوة الحربية المتوافرة لديهم - إذ ذاك - كانت ضئيلةً بالقياس إلى  
 قوات المعارضين، فقد تسرب إلى قلوب طائفةٍ منهم الوهن، وفقدوا ثقتهم في  
 الانتصار، فذكرهم الله بحادثٍ من تاريخ بني إسرائيل، يتضمن درساً بليغاً مفاده، أن  
 الحذر من الهزيمة في معركة الحياة إنما هو الهزيمة بعينها .

لقد قام الفلسطينيون - أحد الشعوب القديمة المجاورة لبني إسرائيل - بشن  
 الهجوم عليهم، فانهمز بنو إسرائيل أمامهم شر هزيمة، لدرجة أنه من خلال هجمتين  
 اثنتين فقط قتل الفلسطينيون ما يبلغ أربعةً وثلاثين ألف رجلٍ منهم، وسيطر الخوف  
 والرعب على بني إسرائيل ففروا من ديارهم هاربين، وعلى حد تعبير التوراة: « قد زال  
 المجد من إسرائيل » (صموئيل الأول، الإصحاح الرابع: ٢٢).

وفي إثر تلك الكارثة أخذ كل بيتٍ من بيوت إسرائيل ينوح ويكيي هما وكمدأ، حتى



رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةُ مِمَّا تَرَكَ آدَمُ لِمُوسَىٰ وَآلِ هَارُونَ حَمَلُهُ الْمَلَكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢١٨﴾

الْمَلَأُ: وجوه القوم وكبرائهم .

عَسَيْتُمْ: قاربتم .

أَنَّى يَكُونُ: كيف أو من أين يكون؟

وَزَادَهُ بَسْطَةً: سعة وامتدادا وفضيلة .

يَأْتِيكُمْ التَّابُوتُ: صندوق التوراة .

فِيهِ سَكِينَةٌ: سكون وطمأنينة لقلوبكم .

لم تكذ تنتهي ثلاثة قرون بعد موسى عليه السلام حتى صار بنو إسرائيل مقهورين بأيدي الأمم الوثنية التي كانت تجاورهم إذ ذاك ، وبعد مرور حوالي ربع قرن من الزمان على هذا الحال، دبَّ في نفوسهم ديب اليقظة والنهوض، ففكروا في استعادة مجدهم الغابر، وإنقاذ أنفسهم من الهلاك، وبناء على طلبهم، عيَّن نبهم «صموئيل» (١٠٢٠ - ١١٠٠ ق م) قائداً سُمِّي بـ«طالوت» في القرآن الكريم وبـ«شاؤل» في التوراة .

وقد كان طالوت هذا يملك من المؤهلات والاستعدادات الذاتية ما يجعله أجدر الناس بذلك المنصب، غير أن بني إسرائيل لم تتسع صدورهم للاعتراف بسيادته وأخذوا يوجهون إليه الاعتراضات والمآخذ، مثل أنه ينتمي إلى عائلة غير ذات شأن، وليس بذي مالٍ وثروة طائلة... إلخ .

إن أفضية الله سبحانه وتعالى تكون مبنية على أساس من السعة والعلم، ولذا فإن العبد المحبب إلى الله هو الذي ينظر إلى الأمور بروحٍ سَمِحةٍ، وعقلٍ منفتحٍ، وإذا اتخذ موقفاً من إحدى القضايا فإنها يتخذها بناءً على الحقائق المجردة وحدها، وليس بناءً على التعصبات والمصالح الشخصية، بيد أن الله سبحانه وتعالى وثق أيضاً جدارة

«طالوت» بتولي الإمارة، من خلال إرجاع التابوت توثيقاً غير عادي .

ولم يزل بنو إسرائيل - منذ أن خرجوا من أرض مصر - يتوارثون بينهم تابوتاً مقدساً، محتويّاً على رضاض ألواح التوراة وغيرها من المتبركات، ومحسبونه رمزاً للظفر والانتصار على أعدائهم، وكان الفلسطينيون قد أخذوا هذا التابوت منهم، وذهبوا به معهم، غير أنهم ما كانوا يضعونه في بلدة ما حتى تنتشر فيها صنوف من الأمراض الوبائية، مما جعلهم يتشاءمون من وجود التابوت عندهم، فما لبثوا أن وضعوه على عربة يجرها ثوران، وما برح الثوران يسيران بالعربة في الاتجاه الذي سيقا إليه، حتى أفضى بهما المساق إلى حيث القرى اليهودية الأهلة.

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۖ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ ۖ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۗ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٢٤﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أفرغ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٢٥﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ ۗ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

فَصَلَ طَالُوتُ: انفصل عن بيت المقدس.

مُبْتَلِيكُمْ: مختبركم وهو أعلم بأمركم

اعْتَرَفَ: أخذ بيده دون الكرع.

لَا طَاقَةَ لَنَا: لَا قُدْرَةَ وَلَا قُوَّةَ لَنَا.

فَيْتَةٍ: جَمَاعَةٌ مِنَ النَّاسِ .

بَرَزُوا: ظَهَرُوا وَانْكَشَفُوا.

وَالْحِكْمَةَ: النُّبُوَّةَ .

بعد سيدنا موسى عليه السلام بنحو ثلاثمائة عام، وقبل ميلاد المسيح عليه السلام بحوالي ألف سنة، حدث أن شن الفلسطينيون هجوماً على بني إسرائيل واستردوا معظم أجزاء فلسطين من أيديهم، وبعد رده من الزمن، أراد بنو إسرائيل أن يهاجموا الفلسطينيين ويغتصبوا بلادهم، وقد كان بينهم إذ ذلك نبي يُسمى «صموئيل»، يقطن بمدينة «الرامّة» - إحدى مدن سوريا القديمة - وكان مسئولاً عن شؤون بني إسرائيل الاجتماعية في عصره، فقابله وفد من بني إسرائيل، وقالوا له: لقد بلغت الآن سن الشيخوخة، لذا فإننا نرى أن تملك علينا رجلاً من أنفسنا، لنتمكن من قتال أعدائنا تحت إمرته.

على أن «صموئيل» لم يكن حسن الظن بسلوك بني إسرائيل، ولا واثقاً بمواعيدهم غير أنه رآهم يابون إلا أن يؤمر عليهم أحداً، فأجاب طلبهم، فجعل فتى شجاعاً من قبيلة «بنيامين» يُدعى «شاؤل» (طالوت) أميراً (ملكاً) عليهم.

وانطلق شاؤل (طالوت) بمعية جيش الإسرائيليين يزحف نحو العدو، وكان الطريق يخترق نهر الأردن، وبجانبه المقابل تماماً تقع مناطق العدو، وكان طالوت خبيراً بنقائص بني إسرائيل، ومواطن ضعفهم، فأراد أن يمتحن معنويات جنوده، قبل أن يخوض بهم غمار الحرب، فأعلن أثناء عبور النهر، ألا يشرب أحد من الماء، إلا من اغترف غرفةً أو بعض غرفةً بيده فلا بأس بذلك، لكن غالبية بني إسرائيل فشلت في هذا الاختبار، بيد أن الله سبحانه وتعالى أمدهم بنصره في هذه المعركة، وقد أدى سيدنا داود - الذي لم يكن قد تجاوز سن الشباب بعد - الدور الحاسم في هذه الحرب

حيث قتل بيده جالوت ، البطل العملاق من عسكر الفلسطينيين ، فانكسر الفلسطينيون أمام الإسرائيليين ، واحتل اليهود فلسطين .

إن الإنسان حين تتوافر لديه أسباب السلطة ، فلا يلبث أن يقع في الغرور والكبرياء عاجلاً أو آجلاً ، فيبغي على الآخرين ويسومهم سوء العذاب ، ومن ثم فلو أن مقاليد السلطة والحكم أصبحت وقفاً على أحد من الناس بصفة دائمة ، لملاً أقطار الأرض كلها ظلماً وفساداً وعدواناً ، ولذا فقد جرت سنة الله عز وجل في تدبير شئون هذه الدنيا بأنه لا يزال يستبدل أصحاب السلطان بعضهم ببعض ، فهو يبعث - إذا شاء - طائفة من المحكومين المستضعفين ، ويدفع بها صاحب السلطة ، لكي يحل محله من شاء من عباده الآخرين ، وهذا يعني أنه كلما طغى حزب من الأحزاب الحاكمة ، وبلغ من الظلم والعدوان غايته ، فإن ذلك يكون أوان النصر الإلهية للحزب المعارض الذي يقوم ضده .

ولست الخشية من الله بشيء سلبي محض ، بل إنها معرفة تصقل عقل الإنسان وتملؤه نوراً وضياءً ، فيرى كل شيء في صورته الأصلية والحقيقية .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠٢﴾ \* تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا وَلَكِنِ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

بُرُوحِ الْقُدُسِ: جبريل عليه السلام.

عندما يبعث أحد عباد الله للناس للإيمان به تعالى ، فإنه نداءه يتضمن آيات واضحات للناس ليتأكدوا من أنه من عند الله عز وجل ، غير أن الناس - مع ذلك -

لا يلبثون أن ينكروه ويححدوا به ، وفي مقدمة هؤلاء المنكرين الجاحدين عادة ما يكون أولئك الذين كانوا مؤمنين من ذي قبل بإحدى الرسالات السماوية ، فما هو السبب في إنكارهم للرسالة الجديدة؟ السبب في ذلك هو اعتقادهم بأفضلية مطلقة للرسول الذي ظلوا يؤمنون به ، ولذا فهم يقولون: أنه إذا كان رسولنا قد بلغ من كمال الفضل وعلو المقام هذا المبلغ الرفيع ، ومازلنا نحن نؤمن به فعلاً ، إذن فما الذي يُوجنا بعد إلى الإيمان بأي رسول آخر؟!

كل رسولٍ يبعث في بيئةٍ وظروفٍ مختلفةٍ، ومن ثم يُعطى لبعض الرسل «فضيلة»، وللبعض الآخر فضيلة أخرى ، وإن فضيلة الرسول هذه تتخذ صورة فتنةٍ بالنسبة لأتباعه في العصور التالية ؛ لأنهم يحملون الفضيلة المعطاة لرسولهم على غير محلها، إذ يحسبونها «فضيلةً مطلقةً» بدلاً من كونها «فضيلة تعزيرٍ وتأييدٍ»، فهم يقولون: إننا مؤمنون بأفضل الرسل على الإطلاق فلنسنا بحاجةٍ إلى الإيمان بأحدٍ سواه .

لقد أنكر المؤمنون بموسى عليه السلام رسالة سيدنا المسيح عليه السلام ، ذلك بأنهم ظنوا أن نبيهم أفضل درجةً حتى إن الله تعالى كلمه على نحوٍ مباشرٍ، وأنكر المؤمنون بعبسى عليه السلام رسالة نبي آخر الزمان عليه السلام ومرجع ذلك إلى ظنهم القائل بأنهم يؤمنون بشخصيةٍ قد ارتقت في سلم المجد والفضيلة إلى حد أن خلقها الله من غير أب .

وعندما تُمنى الأمم والشعوب بالانحطاط، ويتجه الناس بكليتهم نحو الدنيا، وينغمسون في لذاتها، غير أنهم - مع ذلك - يريدون ألا تنفلت الجنة من أيديهم، وتلعب هذه العقيدة دورها الفعال في تزويدهم بضربٍ من السكينة النفسية، فإنهم يجدون في اعتقادهم بأفضلية شخصياتهم المقدسة ما يبعث على الثقة والاطمئنان بأن مصيرهم في الآخرة سيكون مضموناً على كل حال.

وهذا هو الاعتماد الخاطيء الذي يجعل الناس يجترئون على مخالفة الداعي إلى الله ، وإنه لو شاء الله سبحانه وتعالى لجعل للدعوة والإرشاد نظاماً آخر لا يبقى فيه لأحد

مجال للاختلاف أو المكابرة، غير أن الدنيا الحاضرة هي دار امتحانٍ .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفِيعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿١٤٦﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٤٧﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٤٨﴾

وَلَا خُلَّةٌ: لا مودة ولا صداقة .

الْحَيُّ: الدائم الحياة بلا زوال .

الْقَيُّومُ: الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظهم .

سِنَّةٌ: نعاس وغموة .

وَلَا يَأْخُذُهُ: لا يثقله ولا يشق عليه .

تَبَيَّنَ الرُّشْدُ: من الضلالة والكفر .

مِنَ الْغَيِّ: من الضلالة والكفر .

بِالطَّاغُوتِ: ما يطغى من صنم وشيطان ونحوهما .

بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى : بالعقيدة المحكمة الوثيقة .

لَا انْفِصَامَ لَهَا : لا انقطاع ولا زوال لها .

المراد بالإنفاق هو بذل النفس والنفيس في سبيل الدين، وهو التضحية بالمنافع والمصالح الذاتية التي تقف دون التقدم نحو الدين، إن المرء حين يختار عقيدة ما مقابل ثمن الإنفاق، فإن ذلك يدل على كونه جاداً في اختياره لتلك العقيدة، وإنه بعد تمام توافر الجدية فقط يمكن أن تقوم هناك علاقة حقيقية صادقة بين المرء وهدفه، وبالتالي يتمكن المرء من الإحاطة بكل جوانب الهدف وأبعاده، وعلى العكس من هذا تماماً يكون حال الشخص الذي لا يختار الدين مقابل أن يدفع وجوده كله كثمن لهذا الاختيار، فمثل هذا الشخص لا يكون جاداً بشأن الدين، ومن ثم فهو لا يشعر بخطورة قضية الآخرة، بل سوف يعدها قضية هينة، وسوف يظن أن شفاعة أحد الصالحين والأولياء، أو ممارسة بعض الطقوس والمراسم الشكلية باسم الدين كافية للنجاة في الآخرة.

قد تعرض على المرء كلمة الله بلغة البرهان، غير أنه لا يلبث أن يرفضها مستنداً إلى مجموعة من الألفاظ الجميلة الخادعة، تلك هي الوسوسة الشيطانية بعينها، فلا يظفر بالهدى إلا الذي يعني بتحصيل نفسه من وساوس الشيطان.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ : هو نمرود بن كنعان الجبار.

فُهِتَ : غُلِبَ وتمخِر وانقطعت حجته.

إن موالاة الشعب وتأييده هما المصدر الأساسي الذي يُستمد منه استحقاق ولاية الحكم أو ممارسة السلطة السياسية في عصرنا الحاضر ، غير أن معظم الملوك قديماً كانوا يحكمون الناس عادةً عن طريق إقناعهم بأنهم مظاهر بشرية للإله الأعظم المتصرف وراء هذا الكون ، وهكذا كان شأن «نمرود» ملك العراق القديم، الذي كان معاصراً لسيدنا إبراهيم عليه السلام، حيث كانت أمته تعبد الشمس اعتقاداً منها بأنها إله الآلهة، فادعى «نمرود» أنه مظهر أرضي لإلهه الشمس العظمى، ومن ثم فهو يتمتع بالحق الإلهي لممارسة الحكم المطلق بين الناس .

وعندما دعا سيدنا إبراهيم عليه السلام بدعوة التوحيد في العراق، فلم يكن لها مساس مباشر بالحكم والسياسة، إنما كان يقول للناس إن خالقكم ومالككم هو الله الواحد الأحد لا غير، ولا شريك له شيء من الألوهية؛ لذا يجب عليكم ألا تعبدوا إلا الله وحده، وألا تخافوا ولا ترجوا أحداً إلا إياه تعالى ، غير أن «نمرود» رأى في دعوة إبراهيم غير السياسية هذه، ضربةً قاصمةً موجهةً إلى سلطته السياسية، فإن عقيدة التوحيد، التي بموجبها تتحول معبودته الشمس من إله الآلهة إلى عبدٍ ضعيفٍ، كغيرها من الكائنات الأرضية والسماوية، كانت تمثل معول الهدم للأساس العقدي الذي كان نمرود قد أقام عليه عرش مملكته ، فصار عدواً لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام .

والحوار الذي دار بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وبين الملك نمرود، يُلقى الضوء على منهج الأنبياء للدعوة إلى الله ، إذ قال عليه السلام رداً على سؤال نمرود: «إن ربي هو الذي يملك الحياة والموت» فأجاب نمرود، متخذاً أسلوب الجدل والمناظرة: «أنا أيضاً قادر على الإحياء والإماتة ؛ أقتل من أشاء، وأحيي من أشاء»..، وقد كان بإمكانه - عليه السلام - أن يُفند جواب نمرود ويكشف عن زيفه ، غير أنه لم يجب أن يتحول الحوار إلى الجدل والمناظرة، ولذا عمد بفوره إلى تقديم مثالٍ آخر لا يدع أمام نمرود مجالاً للمغالطة أو التمويه كشأنه بالنسبة للمثال الأول .

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمْتُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِن لَّا يَظْمِنُ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ آدَعْهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّهُ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا: ساقطة على سقوفها التي سقطت .

أَنَّى يُحْيِي: كيف أو متى يحيى .

لَمْ يَتَسَنَّهْ: لم يتغير مع مرور السنين عليه .

نُنشِزُهَا: نرفعها من الأرض لنؤلفها .

فَصُرْهُنَّ: أملهن : أو قطعهن مماله إليك .

إن تجربتي البعث بعد الموت اللتين ورد ذكرهما في هذا المقام، تتعلقان بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام، التجربة الأولى مر بها سيدنا عزيز عليه السلام الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، وأما التجربة الثانية فهي ترتبط بسيدنا إبراهيم عليه السلام الذي عاش خلال الفترة من (٢١٦٠ وحتى ١٩٨٥ ق.م) ، وإذا كان الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - إنما يُبعثون من عند الله سبحانه وتعالى من أجل القيام بإعلام الناس بحقائق الغيب، لذا فقد يُكشف لهم عن أعيان تلك المغيبات التي أُسدل عليها ستار الأسباب بالنسبة لغيرهم من الناس، وإنما تجري هذه المعاملة الخصوصية مع الأنبياء - عليهم

السلام - حتى يتمكنوا من إخبار الناس بتلك الأمور الغيبية كمن شهدها عياناً، وحتى يتمكنوا - كذلك - من أن يقولوا للناس عند إخبارهم بتلك الحقائق الغيبية، إننا نخبركم بشيء مشاهد منظور وليس بمجرد خبر مسموع.

إن حياة الأنبياء قبل النبوة تنقضي أمام أعين الناس، وهي كلها الصدق والأمانة، لا كذب فيها ولا خداع، وإنه بعد ممارسة حياة صادقة أمانة في المجتمع كهذه، يحين ذلك الوقت الذي يبعثهم الله تعالى فيه، لكي يقوموا بإعلام الناس بحقائق الغيب، تلك التي تم إخفاؤها عن أنظار الناس بناءً على حكمة الابتلاء والاختبار، ثم إن أولئك الأنبياء يمرون دائماً بظروف أصعب وأشد ما يكون، غير أنهم لا ينحرفون عن قولهم، ولا يزالون صامدين ثابتين على دعواهم، مما لا يدع بالتالي مجالاً للشك في أنهم جادون تمام الجدية في كل ما يقولون، وليسوا بمدعين أمراً تصنعوه أو اختلقوه اختلاقاً.

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ ۗ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٠﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ هُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١١﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَدَىٰ ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿١١٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۗ لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

مَنًّا: عدداً للإحسان وإظهاراً له .

أَدَىٰ: تطاولا وتفاخرا بالإنفاق أو تبرما منه .

رِئَاءَ النَّاسِ: مُرَاءة لهم وسمعة لا لوجهه تعالى.

صَفْوَانٍ: حجر كبير أملس .

وَإِبِلٌ: مطر شديد عظيم القطر .

صَلْدًا: أجرد نقياً من التراب .

كل عملٍ يعملهُ الإنسان شأنه شأن حبةٍ يبذرُها في «أرضٍ»، فإن كان عمله من أجل أن يراه الناس، فقد بذر حبته في أرض الدنيا، حتى يتمكن من الاستمتاع بثمرة أعماله في حياة هذا العالم الفاني، وإن كان عمله من أجل أن يراه الله تعالى وحده فقد بذر حبته في أرض الآخرة، فتعطي ثمارها البانعة في العالم الآخر، وكما أن الحبة الواحدة الملقاة في مزرعة الدنيا تُنبِت المئات من الحبوب، كذلك الحال بالنسبة لإلقاء الحبة في مزرعة الآخرة أيضاً، إن المنفق لأجل منافع الدنيا، أو لأجل الظهور والحظوة عند الناس، إنما يرغب في أن ينال أجره في هذه الدنيا بالذات، ولذا فلن يكون لمثل هذا الرجل في الآخرة من نصيب، وأما الشخص الذي يُنْفِق من أجل ابتغاء وجه الله تعالى وحده، فإن له شأنًا آخر، إنه لا يعتد بإحسانه على أحد؛ إذ لو كان إنفاقه لأجل الله تعالى وحده، إذن فماذا يدفعه بعدُ إلى أن يمن بذلك على الإنسان؟! كما أنه لا يُبدي أبداً أي نوعٍ من السخط أو الاستياء فيما إذا ردَّ المتفجعون بإنفاقه رداً غير جميل؛ إذ سيحظى بجميل الرد عند الله سبحانه وتعالى، إذن فما الذي يجعله يرجو عطاء الناس أو يحزن لحرمانهم إياه؟! وإنه إذا لم يكن بإمكانه أن يُعطي أحد السائلين، فلا يقول له كلمةً لاذعةً أو جملةً جارحةً، بل يعتذر إليه برفقٍ؛ لأنه يعلم أن كل ما يقوله فإنما يقوله أمام الله عز وجل، فالخشية من الله إذن تُرغمه على أن يمسك لسانه أمام الإنسان.

إذا تراكم شيء من التراب على صخرة، بدت وكأنها كلها تراب، ولكن ما إن يصيبها مطر شديد حتى يزول الجزء العلوي من التراب، ويتكشف بالتالي عن صخرة صلبة ملساء! وهكذا يكون حال الإنسان الذي لم يأخذ من التدين إلا مظهره الخارجي فقط، والذي لم يكن الدين قد خالط روحه، ونفذ إلى دخيلة نفسه، لأن رجلاً كهذا لا

يلبث أن ينفجر غيظاً وحنقاً ما يبعثه على تحطّي كل حدود العدل والنصفة فيما لو سأله أحد السائلين بأسلوبٍ غير مهذبٍ، أو قابله أحد الناس بما يمسّ أنانيته، ويجرح كبريائه، فإن حادثاً كهذا يُشبه طوفاناً جارفاً يذهب بما يعلو شخصيته من «ترابٍ»، ثم يبدو للعيان بعدئذٍ ذلك الإنسان الداخلي الذي وراه بلبوسٍ ظاهري من التدين .

إن ممارسة العمل من أجل الله سبحانه وتعالى يعني إشار الغيب على المشهود، أو تفضيل الآجل البعيد على العاجل القريب، وإن من بلغ من سمو النظر وبُعد الهمة هذا المبلغ العالي، فإنما ذلك هو الشخص الذي تفتح عليه أبواب المعرفة الإلهية الخفية.

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ آتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٧٦﴾ أَيُودُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ فَاَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

وَتَثْبِيتًا: تصديقا وبقينا بثواب الإنفاق .

جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ: بستان بمرتفع من الأرض .

أُكُلَهَا: ثمرها الذي يؤكل .

فَطَلٌّ: فمطر خفيف (رذاذ) .

إِعْصَارٌ: ريع عاصف (زوبعة) .

فِيهِ نَارٌ: سموم شديد . أو صاعقة .

إن الإنسان إذ يعمل من أجل شيء، فإنه يزيد من قوته الإرادية بالنسبة لذلك

الشيء، فإذا كان عمله صادراً عن هوى نفسه، فقد ركز قلبه على هواه، وعلى العكس من ذلك فإذا تحرك الإنسان للعمل وفق مشيئة الله العليا، فقد ركز قلبه على الله عز وجل، وفي كلا الطرفين يحدث أن يضطر المرء تارةً إلى ممارسة العمل في ظل ظروف سهلة، وطوراً في ظل ظروف صعبة، بيد أنه بقدر ما تكون الأحوال حالكة، والمواقف قاسية، وبقدر ما يجد المرء نفسه مضطراً إلى متابعة عمله، مكافحاً لكل ما يواجهه من خطوب وأزماتٍ شدادٍ، بقدر ما سيحاول جهده لتقوية إرادته وتوطيد عزمه بالنسبة لهدفه المنشود.

ومع أن بذل المال في سبيل الله في الظروف المعتادة مستوجب للأجر والثواب، غير أن المرء إذا أعطى ماله في سبيل الله، بعدما استخدم لذلك قوة إرادية استثنائية، تحت ضغط الموانع وتيار العوامل المضادة، كان أجره عند الله حينئذٍ عظيماً إلى حد بعيد جداً، فأن يبادر المرء بالإنفاق في وجهه، لا يعود عليه إنفاقه فيه بأي مردودٍ ماديٍ عاجلٍ، لمجرد ابتغاء مرضاة الله، وأن يُعطي للرجل - رغماً عن كرهه إياه - لوجه الله تعالى، وأن يُحسن إلى من لا ترغب نفسه في الإحسان إليه من أجل الله وحده، كل ذلك مما يُثبت قدميه على طريق العبودية الإلهية أكثر من كل شيءٍ آخر، ويجعله بالتالي أهلاً للرحمة الله ونصرته الخالصة .

وإنه طالما تشددت عناية المرء بأن يُنشئ لنفسه حديقةً في شبيبته، رجاء أن يأكل ثمارها اليانعة عندما تتقدم به السن، إذا فما أسوأ حظاً إذا بلغ مشارف شيخوخته، بادت حديقته المخضرة فجأةً، واحترقت بما فيها من أطيب الثمار وأنواع الفواكه، وهو أحوج ما يكون إليها وتكون الفرص قد فاتته، لإنشاء حديقةٍ جديدةٍ وسيلاقى المصير بعينه، كل أولئك الذين يمارسون العمل الديني لأجل النفوذ والمنفعة الدنيوية، مع أنهم كانوا يمارسون أعمال البر والخير في ظاهر الأمر، غير أنها لم تكن تختلف عن أعمال رجال الدنيا العاديين إلا من الناحية الشكلية وحدها، إذ لم يكن ثمة فارق جوهري بينهما من حيث الحقيقة، فإن الواجهة الدنيوية والرقى المادي اللذين كان عامة أهل الدنيا

يكدحون لإحرازهما كدحاً في المجالات الدنيوية، فقد بدأ أولئك يكدحون من أجل الوصول إلى ذات الوجهة الدنيوية والرقمي المادي في المجالات الدنيوية، فقد أراد أولئك أن يحصلوا على السمعة والمكانة نفسها عن طريق بذل أموالهم في تشييد بناء الدين، وأمثال هؤلاء الناس حين يصلون إلى عالم الآخرة، بعد انتهاء آجالهم، لن يجدوا هناك شيئاً! ذلك لأن كل ما قد عملوه هنا من عمل، فإنما عملوه من أجل منافع هذه الدنيا وحدها، فكيف يمكنهم أن يجنوا ثمار أعمالهم تلك في العالم الآتي؟! إن آيات الله جل شأنه لا تزال تظهر وتتجلى دائماً في كل أرجاء الوجود، غير أنها تتكلم بلا نطق، أو تنطق بلغة صامتة؛ ولذا فلن يوفق إلى استلهاهم ما تطوي عليه من الدروس والعبر، إلا الذي يكون قد أعد نفسه للتأمل والتفكير.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٠٤﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٥﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٠٦﴾﴾  
 وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ: لا تقصدوا المال الرديء.

تُغْمِضُوا فِيهِ: تتساهلوا وتتساعجوا في أخذه.

إن هناك وجهتين اثنتين لإنفاق ما يكسبه الإنسان في هذه الحياة الدنيا من مالٍ ومتاع، وأولى هاتين الوجهتين اثنتين: أن يتم إنفاقه في سبيل الله تبارك وتعالى، والوجه الثانية: أن يتم إنفاقه في سبيل الشيطان، وإن الشيطان يحاول بدوره أن يُرسخ في قلب الإنسان أهمية مطالبه الذاتية، ويجعلها نصب عينيه، وهو يوحي إليه بأن خير وجه لبذل ما قد أحرزه من مالٍ إنما هو أن يُسخره كله في تغطية حاجاته الذاتية ليس غير، ثم إذا

وجد الشيطان أن المرء تتوافر لديه مقادير كبيرة من المال زائدة عن حوائجه الضرورية؛ عمِل على إلهاب عاطفةٍ أخرى جديدةٍ في داخله، ألا وهي عاطفة الرياء والتفاخر والظهور، ومن ثم يأخذ المرء في تبديد ثروته في إقامة المظاهر والطقوس الشكلية بكل سخاء!!

إنه ينبغي للإنسان ألا يحسب ماله ملك يمينه، بل يحسبه ملكاً لله تعالى، وبالتالي يجب عليه أن يأخذ من كسبه كفاف حاجته فقط، وما يتبقى بعد ذلك يصرفه في تحقيق الأهداف النبيلة، والغايات العُليا، ويُعطي الضعفاء والمحرومين من عباد الله، وينفق في سبيل الوفاء بمقتضيات الدين، وإنه إذ يُعطي المرء ماله لعباد الله المستضعفين، فكأنما يبرجوره - بلسان حاله - ألا يجرمه من نفحات رحمته؛ عندما يحضر أمامه تعالى صفر اليدين في اليوم الآخر، وهكذا إذ يُنفق المرء ماله في مقتضيات الدين، فإنما يُشرك نفسه في المشروع الإلهي العظيم، ويضم ماله إلى مال الله، حتى تنمو وتتضخم بضاعته الضئيلة المزجاة، بعدما تم انضمامها إلى خزانة الله الكبرى التي لا تفاد لها.

إن الذي يقوم بإنفاق ماله في الوجوه التي قررها الله سبحانه وتعالى، يُثبت أنه قد رُزق نصيباً لا بأس به من الحكمة والحصافة، إن أكبر سفاهةٍ يمكن أن يُصاب بها إنسان هي أن يجب المال حباً شديداً، بحيث يمنعه ذلك عن صرفه وإنفاقه في سبيل الله .

وبالمقابل فإن أكبر حكمةٍ يمكن أن يسعد بها إنسان هي ألا تنقف المنافع الاقتصادية بمثابة حجر عثرةٍ دون مبادرته مواصلة سيره الخيِّث في سبيل الله .

والشخص الذي يعيش منكمشاً داخل قوقعة مصالحة الذاتية وحدها، لن يوفق أبداً إلى أن يظفر بذلك البصر الثاقب الذي يمكنه من رؤية الحقائق العليا كما هي، ولا يستطيع أيضاً أن يجرب الكيفيات اللطيفة السامية.

وعلى العكس من ذلك، فإن الشخص الذي يتقدم نحو الله، صارفاً نظره عن المصالح الذاتية، فإنما يُخرج نفسه من دائرة التحديدات الضيقة، ويرفع من مستوى

وعيه وشعوره إلى مستوى موازٍ لله الغني الحميد؛ ويأخذ بعدئذ يرى الأشياء كما هي في صورها الحقيقية، ذلك بأنه يكون قد تجاوز بنفسه إلى ما وراء القيود والتحديدات كلها، تلك التي طالما تحول بين المرء - المحاصر بها - وبين رؤيته للأشياء في صورها الأصلية المجردة .

﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧١﴾ إِنْ تُبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧٢﴾ ۗ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ ۗ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٣﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٤﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٥﴾ ۗ ﴾

أَحْصَرُوا: حبسهم الجهاد عن التصرف .

ضَرْبًا: ذهابا وسيرا للتكسب

التَّعَفُّفِ: التنزه عن السؤال .

بِسِيمَاهُمْ: بهيئتهم الدالة على الفاقة والحاجة .

إِلْحَافًا: إلحاحاً في السؤال .

إن أفضل وجه للإنفاق في سبيل الله يتمثل في تقديم المعونات المالية لأولئك الخدام

الدينين الذين أصبحوا فقراء، نتيجة انصرافهم الكلي إلى الكفاح الديني، الشخص الذي يُسخر وجوده كله للخدمة الدينية، لن يجد متسعاً من الوقت للقيام بأعباء كسب المعاش.

والسؤال المطروح الآن: ما الحل الإيجابي لهذه المشكلة؛ نظراً لأن مجتمعاً ما لا يمكن أن يقوم على دعائم وأسسٍ راسخةٍ متينةٍ ما لم تتوافر فيه الجهود والنشاطات من كلا النوعين: الاقتصادي والديني جنباً إلى جنب، إذ لا يمكن الاستغناء عن أي واحدٍ منهما على أية حال؟

إن الحل لهذه المشكلة يكمن في أن يقوم هؤلاء الأفراد الموسرين، الذين تجتمع في أيديهم كميات وافرة من أسباب العيش؛ أن يقوموا بتخصيص أنصبة ملحوظة منها، يدفعونها لأولئك الذين حال انهماكهم في المهام الدينية دون تمكنهم من توفير موردٍ مستقلٍ لمعيشة أنفسهم وأهليهم، إن هذا بمثابة توزيع عملٍ، يتم طواعيةً وفي صمتٍ بالغٍ بين الطرفين، فلا يكون ثمة غرض وراء ذلك سوى ابتغاء مرضاة الله تعالى.

وبما أن خادم الدين وهب نفسه، وسخر وجوده لأجل الله تعالى وحده، وليس لأي شيءٍ آخر سواه؛ لذا فإنه لا يمد يد السؤال إلى الإنسان، ولا يرجو عطاءه أو يطمع في معونته، وبالمقابل ينظر صاحب العيش الرغيد ويقول: إن كل هذه الوسائل والإمكانات الاقتصادية الهائلة، التي أملكها إنما ملكتها على حساب خدمة الدين؛ إذ لم يكن بوسعي ألبتة أن أحصل عليها في حالة ما إذا قمت بتأدية ما كان يجب على أدائه نحو دين الله، إذن فلا أقل من أن أتدارك هذا الأمر، بأن أخصص من ثروتي حصصاً مستقلة، لصالح إخواني المنقطعين بكليتهم للخدمات الدينية، وكأننا هم يستدركون عني عند الله ما قد فرطت أنا في جنبه سبحانه وتعالى.

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا

فَمَنْ جَاءَهُرَ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾

يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ: يصرعه ويضرب به الأرض .

المس: الجنون والخبيل.

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا: يهلك المال الذي يدخل فيه .

وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ: يُنمي المال الذي أخرجت منه.

تمثل الزكاة علاقةً أو رمزاً للنوعية المطلوبة من العلاقات الاقتصادية المتبادلة بين عباد الله، فمن خلال قيامه بتأدية الزكاة يعبر المسلم عملياً عن بالغ إحسانه واعترافه بحقوق المسلم الآخر.

والدين الذي يتوخى إيجاد مثل هذا المناخ السامي لرعاية حق الغير ومصالحته، لن يسمح أبداً بأسلوب التعامل الربوي، القائم على حب المال إلى حد العبادة، وفي مجتمع كهذا - الذي يقوم على المبادئ والأسس الإسلامية الرفيعة - تدور كل المعاملات المالية المشتركة بين الناس وفق مبدأ التجارة، دون مبدأ المرباة .

على أن الرجل يكسب الربح في أثناء التعامل التجاري أيضاً، هذا مما لاشك فيه، غير أن الربح الحاصل من وراء التجارة يكون عوضاً عما يبذله المرء من جهودٍ وطاقتٍ، وما يتكبد في سبيل ذلك من صعوباتٍ ومخاطرٍ، في حين أن الربا عبارة عن الربح الناتج عن محض الأثرة وادخار الأموال، من غير كدٍ ولا نصبٍ.

إن المرابي إذ يُعطي ماله لغيره فإنما يعطيه ليتمكن من تنمية ثروته ، ولذا فأشد ما يكون سروره، حينما يجد أن رأس ماله أخذ في النماء والتزايد المستمرين، بنسبة مئوية ثابتة، ولكن الإنسان الذي يُعده في داخل نفسه، عبر عمله هذا، هو إنسان أناني محب لذاته، ومتعبد لمتاع الدنيا ومباهجها .

وعلى العكس من ذلك، فإن الشخص الذي يتصدق على غيره، مما كسبه بكد يمينه وعرق جبينه، والذي لا يتخذ من احتياجات الآخرين ذريعة لاستغلالهم، وامتصاص دمائهم، بل يقدم إليهم يد المعونة، ويقاسمهم ما يعانون من بؤسٍ وشقاءٍ، فإن الإنسان الذي يُعده هذا الشخص في داخله، من خلال عمله ذلك، إنسان يختلف عن سابقه اختلافاً جذرياً، إنه إنسان قلبه ممتلئ بحب الآخرين، ولا يعيش لنفسه وحدها منكمشاً في إطار ذاته الضيق المحدود، بل يتجاوز ببصره وتفكيره إلى أبعد وأوسع من ذلك بكثير حتى يشمل المصالح الإنسانية العامة .

لم يُبعث الإنسان إلى هذه الدنيا لكي يكدح في جنباتها كدحاً من أجل تكديس ركام من الثروة وأسباب الرفاهية ، إن موضع التكديس أو الادخار الحقيقي للإنسان هو الدار الآخرة .

إن الذين يُثبتون الجدارة والأهلية في حياتهم الأرضية سيختارهم الله تعالى ليُسكنهم في الجنة ، وأما الآخرون ، فسوف يُلقى بأجمعهم في نار جهنم كالقمامات .

الروح الكامنة في الصدقة هي إعطاء المحتاج لوجه الله، والروح الكامنة في الربا هي إعطاء المحتاج لاستغلال حاجته واضطراره ، فالصدقة علامة لرغبة الإنسان المتصدق في أنه يريد أن يظفر بذخائر النعيم الأبدي في العالم الآخر، وأما الربا فهو - على النقيض من ذلك - علامة لرغبة الإنسان المرابي في جمع المال وتكديسه في هذه الدنيا الفانية إن هذين إنسانان؛ مختلف أحدهما عن الآخر كل الاختلاف، وإنه لمن المستحيل أن تستوي عاقبة كليهما عند الله تعالى، كلا ، فإذا كانت الدنيا لا ينالها إلا من سعى لها

سعيها ، فلن ينال الآخرة إلا من ضحى في سبيلها بنفسه ونفيسه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾  
فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ  
لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانِ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۗ وَأَن  
تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللَّهِ  
ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾  
فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ: فأيقنوا به.

عُسْرَةٌ: ضيق الحال من عدم المال .

فَنَظِرَةٌ: فإهمال وتأخير واجب عليكم .

المبدأ الأساسي لإصلاح المجتمع أن تكون علاقات الأفراد فيه قائمة على أساس  
العدل ، فلا يبغى أحد على أحد ، ولا يهضم أحد حق أحد .

وإذا كانت المراهبة ظلماً اقتصادياً صارخاً ، فقد حرمتها الشريعة الإسلامية تحريماً باتاً ،  
ولقد أمعن الإسلام في محاربة هذا الظلم الاقتصادي الفاحش إلى حد أن قد اعتبر  
التعامل الربوي في ظل الحكم الإسلامي ، من الجنايات أو الجرائم التي تندرج تحت  
طائلة قانون التعزيرات ، ولكن إذا كان المرابي غير مسموح له بأن يظلم الآخرين  
ويستغلهم ، فلا يحق لأحدٍ سواه كذلك أن يجعل المرابي عرضةً لظلمه ، إذ إن كون أحد  
الناس مجرماً لا يتطلب بالضرورة أن يتم حرمانه من حقوقه المشروعة الأخرى ، إذن  
فعندما تُتخذ فعلاً أية خطوة تعزيرية ضد المرابي ، فإنها تكون مقصورةً على إسقاط المبالغ  
الربوية الزائدة عن الأصل لا غير ، مع التسليم بحقه في استرداد رأسماله الأصلي  
المدفوع للمدين .

غير أن الإسلام ، بجانب إصداره التشريعات والقوانين العامة ، يُراعي جوانب

القصور والضعف البشري أيضاً مراعاةً تامةً ، ولذا فقد ألزم الدائن هنا بأنه إذا وجد مدينه يعاني من حالة العسر وضيق ذات اليد، فليُمهله إلى وقت اليسر الذي يتمكن فيه من الوفاء بدينه، كما تم الحث على أن تتسع صدور الدائنين لوضع المبالغ المستحقة لهم بالكلية، عن أولئك الغارمين الذين لم يعودوا يستطيعون الوفاء بما عليهم من ديون.

إن العافي أو الواضع عن غريمه يستحق أجراً عظيماً عند الله تعالى، كما يؤدي ذلك إلى إيجاد جوٍ مفعم بالثقة والمواساة والتكافل الاجتماعي، يعود نفعه آخر الأمر على سائر أفراد المجتمع .

غير أن مجرد تنفيذ الأحكام الشرعية لا يضمن بالضرورة صلاح المجتمع ؛ لأن الإصلاح الحقيقي لا بد له من سيادة روح التقوى على المجتمع، ومن أجل ذلك عُني القرآن عنايةً بالغةً بالتركيز على معاني التقوى، والإيمان، والآخرة، خلال شرح الأحكام التشريعية.

ولا يمكن أن يتم تنفيذ النظام الإسلامي في أرض الواقع وعلى النحو المطلوب، إلا إذا توافرت روح التقوى في عددٍ كبيرٍ من أفراد الأمة، إن الالتزام بالتقوى عبارة عن استعداد الأفراد النفسي الداخلي لتقبل النظام المطلوب تطبيقه ، ولا يمكن أبداً تنفيذ أي نظامٍ بواسطة قوة القانون وحدها، ما لم تتوافر هناك درجة ملحوظة من الاستعداد الداخلي لتقبله في نفوس الأفراد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ ؕ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِدَيْنِ مِّن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَآمْرَاتَانِ مِمَّن

تَرْضُونَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْتِ الشُّهَدَاءُ إِذًا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا ۗ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۖ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً ۗ فَإِنْ أَتَىٰ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضٌ فليُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ ۗ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۗ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ۖ

وَلِيُؤْمِلَ: وَلِيُؤْمِلَ وَيُؤْمِلَ.

وَلَا يَبْخَسُ مِنْهُ: لَا يَنْقُصُ مِنَ الْحَقِّ الَّذِي عَلَيْهِ .

أَنْ يُؤْمِلَ: أَنْ يَمْلِي وَيَقْرَ بِنَفْسِهِ.

وَلَا يَأْتِ: لَا يَمْتَنِعُ.

وَلَا تَسَامُوا: لَا تَمْلُوا وَلَا تَضْجُرُوا.

أَقْسَطُ: أَعْدَلُ .

وَأَقْوَمٌ لِلشَّهَادَةِ: أَثْبَتَ لَهَا وَأَعَانَ عَلَىٰ أَدَائِهَا.

وَأَدْنَىٰ: أَقْرَبُ.

إذا تعامل رجلان فيما بينهما بمعاملة نقدية (عاجلة)، فإنها تنتهي لوقتها بمجرد أن يتم العطاء والأخذ بين الفريقين، غير أن المعاملات المالية المؤجلة، شأنها غير ذلك، حيث إن الصفقات المؤجلة لو تم انعقادها، بناءً على محض الكلام الشفوي، فمن المحتمل جداً أن يؤدي ذلك إلى حدوث النزاع والخصومة فيما بعد، بسبب عدم وجود

المستندات أو الوثائق ، إذ كلا الطرفين يحاول أن يعرض القضية وفقاً لما يريد، ولا يوجد ثمة أساس فعلي ثابت في ضوئه يمكن البت في الأمر، وتصفية الخلاف كما ينبغي، الأمر الذي طالما يُسفر عن ارتياب أحد الطرفين وإساءته الظن بالطرف الآخر عند الدفع والتسديد .

وحل هذه المشكلة يكمن في الكتابة أو التسجيل ، ومن المستحسن أن يتم تسجيل المعاملات النقدية الفورية هي الأخرى، غير أنه ليس هنالك بد من أن يتم تسجيل المعاملات المؤجلة ، كما يجب إقامة الشهود على ذلك ، وهذا التسجيل الكتابي هو الأساس الموثوق به لفصل الخصومات إن وُجدت ، إن هذا بمثابة تدبير وقائي لصيانة اعتبار الإنسان المسلم المرتكز على التزامه الدائم بالعدل والتقوى في كل شئون الحياة، بحيث يُبرئ ذمته أمام الله ونحو خلقه كذلك عن طريق تأديته لما قد يتوجب عليه من حقوق وفق الشروط المسجلة في الوثيقة ، المسلمون شهداء دين الله في أرضه، فكما أنه لا يجوز للمسلم أبداً أن يحاول كتمان كلمات الله عن علمٍ ودراية، كذلك لا ينبغي لأحد أن يكتم ما عنده من شهادةٍ بالنسبة لقضيةٍ من القضايا البشرية، إن الذي يكتم الشهادة يُرَبِّي في داخله عقليةً إجراميةً آثمةً، ويتقاعس بالتالي عن تمثيل الدور الإيجابي الذي كان بإمكانه أن يُمثله في محاولة التصفية العادلة للقضية المناقشة ، وذلك لأنه رُكِب في ضمير الإنسان أن يبادر باعترافٍ حقٍ، على مرأى ومسمعٍ من الناس، فيما إذا ظهر له أنه عين الحق، وأن يُعلن بنفس الصراحة بكون شيء ما باطلاً، فيما إذا ظهر له أنه غير الحق، فإن الشخص الذي يُحرس لسانه في مثل هذه الحالة، دون أن يرفع عقيرته بإحقاق الحق، وإبطال الباطل، فهو مجرم جعل من نفسه شاهداً على جريمته.

﴿ تَلَّهٖ مَا فِى السَّمٰوٰتِ وَمَا فِى الْاَرْضِ ۗ وَاِنْ تَبَدُّوْا مَا فِى اَنْفُسِكُمْ اَوْ تَخَفُوْهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهٖ اللّٰهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَآءُ ۗ وَاللّٰهُ اِلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ ﴿١٦٤﴾ ؕ اٰمَنَ الرَّسُوْلُ بِمَا اُنزِلَ اِلَيْهِ مِنْ رَّبِّهِ ۗ وَالْمُؤْمِنُوْنَ كُلُّ ؕ اٰمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلٰٓئِكَتِهٖ وَكُتُبِهٖ وَرُسُلِهٖ ۗ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ اَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهٖ ۗ وَقَالُوْا سَمِعْنَا وَاَطَعْنَا ۗ غُفْرٰنَكَ

رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٢٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا  
 اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا  
 حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا  
 وَارْحَمْنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٢٦﴾

غُفْرَانَكَ: نسألك مغفرتك.

وُسْعَهَا: طاقتها وما تقدر عليه.

إِصْرًا: عبئاً ثقيلاً، وهو التكاليف الشاقة.

لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ: لا قدرة لنا على القيام به.

كل شيء في هذا الكون تحت سيطرة الله عز وجل ، فمن الذرة إلى المجرة، كل ذلك خاضع خضوعاً مطلقاً للنظام الإلهي المحكم، فليس بوسع أحد هذه الموجودات أن يتخلف أو يجيد قيد شعرة عن ذات الطريق التي رسمها الله جل شأنه لسيره .

غير أن الإنسان هو الكائن الاستثنائي الوحيد - من بين المخلوقات الأخرى - الذي يجد نفسه في وضع المتصرف المختار؛ فيتمتع بحرية كاملة لاختيار أي طريق شاء، من بين الطرق الكثيرة المختلفة في مسيرة حياته، إلا أن حرية الإنسان هذه ليست مطلقة بل مُنحت له من أجل الابتلاء والامتحان، ولفترة محدودة؛ إذ أن الإنسان مُطالب بأن يخضع لله في حياته العملية كبقية أجزاء الكون المحيط به، فالحياة المنضبطة التي تحكم بقية المخلوقات قسراً، يجب على الإنسان أن يختارها بعينها على أساس من إرادته.

وينبغي للإنسان ألا ينخدع بالوضع الظاهري الذي تجري عليه الآن شئون هذا الكون بأن يظن أنه حر طليق غير مسئول، يفعل ما يشاء، وكيف يشاء، وأنه ليس هنالك من رقيبٍ عليه ، الحقيقة أن الإنسان تحت الرقابة الدائمة لمالك الكون العظيم ولا يزال يرصد ويُحصي عليه كل ما يصدر عنه من قولٍ وفعلٍ؛ مهما كان ذلك صغيراً أو

كبيراً، سرّاً كان أو علانيةً.

أيّ إنسانٍ مطلوب عند الله سبحانه وتعالى ؟

إنه ذلك الإنسان صاحب الإيمان والطاعة، والمقصود من الإيمان الاستسلام الفكري أو الشعوري لله، والمراد بالطاعة : الاستسلام العملي لله تعالى.

إن المطلوب الأول والأساسي من الإنسان - من الناحية الشعورية - أن يتخذ الله إلهاً خالقاً ومالكاً لوجوده، وأن يكون الله ملء كيانه النفسى الداخلى، وأن يكون - ثانياً - قد أدرك الحقيقة القائلة بأن نظام الكون البديع ليس مجرد نظام آلي ميت، بل إنه نظام حي ذو معنى وهدف معين، يسيّره الله جل شأنه ويصرف شئونه بواسطة عمّاله المطيعين له، وأن يكون - ثالثاً - قد عرف من بين عباد الله الأخيار الذين اصطفاهم الله سبحانه وتعالى لإبلاغ رسالته إلى البشر، وأن يكون - رابعاً - قد جعل من الكتاب الذي أنزله الله لهداية البشر، مقوماً أساسياً لأفكاره وخيالاته، وأن يأخذ - خامساً - في النظر إلى أمر النبوة والرسالة السماوية؛ لأنه واقع مستمر متسلسل على امتداد التاريخ البشري بأكمله، وبعد تمام ترسيخ عناصر الإيمان هذه، في أعماق قلبه ودماعه، عليه أن يقوم - أخيراً - بترجمتها إلى نموذج عملي حي ملموس في سلوكه اليومي، وفي حياته العملية كلها.

ثم يجب ألا يكون هذا الإيمان وهذه الطاعة عنده بمثابة رسم ظاهري فارغ أو قضية شكلية جامدة، بل لابد من أن يكون لكليهما أثر مباشر فعال على شخصيته المعنوية، بحيث يذيب روحه، ويصيب كيانه النفسي بهزة عنيفة تجعله يتضرع إلى الله، وينصهر وجوده كله في بوتقة الذكر الإلهي، وتصبح حياته برمتها تحت رحمة الله .